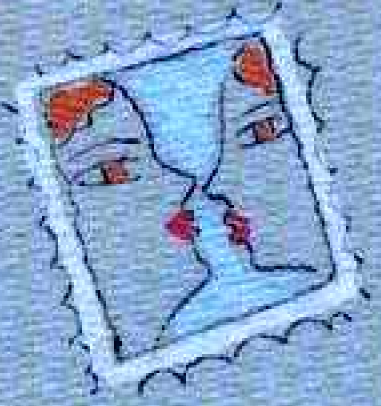
عبد الوهاب مطاوع

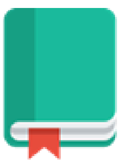
أهلاً... مع السلامة





حلمي التوني

دار الشروق



عبدالوهاب مطاوع

أهلاً.. مع السلامة

دار الشروق

مقدمــة

أهلا . . مع السلامة !

هذا هو ملخص «القصة» كلها . . ومغزاها العميق !

أهلاً للقــادمــين . . ووداعًا للراحلين . . وأهلاً بالحب والصــداقــة وعشرة العمر الجميلة وكل المعانى السامية التى تخفف من عناء الحياة وتزيد من مساحة الصدق والجمال والوفاء فيها ، «ومع السلامة» لكل شىء آن أوان انتهائه . . وحل موعد إسدال الستار عليه .

فلكل شىء فى الحياة بداية . . وله أيضا نهاية لا مفر منها وإن طال المدى . . من الحب إلى الشباب . . إلى النجاح . . إلى الصحة . . إلى الصداقة إلى كل الأشياء ، وكما نسعد بالبدايات السعيدة علينا أيضا أن نتعلم كيف نتقبل النهايات الحزينة لكل شىء فى الحياة ، ونسلّم بها ونتواءم معها .

وفى هذا الكتاب بعض الصور الإنسانية والمقالات الأدبية التى تترجم هذا المعنى ، وتلخص لغز الحياة كلها فى أبسط الكلمات ، اخترتها من بين مشاهداتى فى الحياة ، وقراءاتى فى الأدب الإنسانى فى مختلف العصور ، فعسى أن أكون قد وفقت فى التعبير عما أردت التعبير عنه ، وعسى أن أكون قد وفقت فيما اخترته من صور الحياة وتأملاتها وشجونها الكثيرة .

عبد الوهاب مطاوع

أشجان عابرة!

ألا يحدث لك أحيانًا أن تلتقى بإنسان تعرفه أو لا تعرفه وتسمعه يتحدث إلى غيرك بأسىً فتشعر فجأة بالشجن الغامض يتسلل إلى نفسك، وتجد نفسك بعد انتهاء اللحظة أقل ابتهاجا بالحياة وأكثر ميلا للحزن والصمت والتأمل؟!.

أنا شخصيًا يحدث لى ذلك فى مواقف ولحظات أبعد ما تكون عن الحزن والكآبة، وقد تجرأت ذات يوم وتحدثت فى هذا الموضوع مع صديق لى هاو لعلم النفس، فنفى أن يكون ذلك من الميول الاكتئابية وأكد لى أن المكتئب تنحصر اهتماماته وأحزانه غالبًا فى ذاته، ولكن قمة السرور قد تكون فى بعض الأحيان معادلة لقمة الاستعداد للحزن، ولهذا فإنه يمكن بسهولة أن ينتقل الإنسان من هذه إلى تلك فى لحظات إذا استثيرت أحزانه القديمة، أو تلقت منبهًا خارجيًا يجددها ويستدعيها من مكامنها.. كما أن إشارة الاستدعاء هذه قد تجىء فى موقف حزين.. وقد تجىء أيضًا فى موقف لا يوحى للآخرين بالحزن. ولا غرابة فى ذلك لأن أثر المؤثرات الخارجية على النفس قد يختلف من إنسان إلى آخر تبعًا لحالته النفسية وطبيعته الشخصية التى قد تستجيب لدواعى الحزن بأسرع مما تستجيب لدواعى الابتهاج أو العكس.

فإذا كان الأمر كما يقول صديقى هاوى التحليل النفسى فلا بأس إذن

بأن أحدثك عن بعض المواقف العابرة التى أثارت أشجانى وسلمتنى لفترة غير قصيرة بعدها للتأملات والصمت والحزن الشفيف الغامض.

* * *

فى الكعبة المشرفة ذات صباح بارد نسبيًا منذ سنوات، ابتهجت حين دخلت ساحة الحرم ولمست قلة الزحام فيه فى ذلك الوقت المبكر من الصباح، ووجدتها فرصة نادرة لأن أستطيع أن ألمس أستار الكعبة وألصق صدرى بها وأناجى ربى بما تحلو لى به المناجاة، وفعلت ذلك بالفعل وشعرت بسكينة شديدة وسلام غريب، وتهيأت لأن أغادر موقفى إلى فندق قريب لأشرب قهوة الصباح وأقرأ الصحف وأنا فى هذه الحالة المعنوية الطيبة، فإذا بى أرى بجوارى سيدة شابة جميلة فى العشرينيات من عمرها، تحمل طفلاً وليدًا على ذراعها.. وتمسك بيد الطفل الوليد وتلمس بها أستار الكعبة وتقول له بصوت هامس: قل يا رب اشف ماما.. قل يا رب اشف ماما من أجلى.. قل!.

والطفل الوليد لا ينطق ولا يتكلم بالطبع ولا يفهم أبعاد الموقف الأليم، لكنى فهمته للأسف.. ووجدت نفسى أهتف بحرارة وأنا متعلق بأستار الكعبة وظهرى لهذه السيدة: اللهم استجب لدعاء هذا الطفل الصامت لأمه ولا تردهما خائبين.. اللهم اشفها واشف كل مريض.. آمين يا رب العالمين.. ثم غادرت الحرم وقد تبدد جزء كبير من السكينة التى شعرت بها من قبل، وصاحبتنى صورة هذه السيدة الشابة فى مجلسى بالفندق بعد ذلك وتساءلت فى أعماقى عما تشكو منه هذه الأم الصغيرة، وهل هو المرض اللعين الذى تقشعر الأبدان لذكره؟. وهل هى من المقيمات بهذا البلد مع زوجها وأسرتها، أم تراها قد جاءت من بلدها معتمرة لتتشفع بالمكان الطاهر فى الاستجابة لدعائها؟. وتسلل

الشجن الغامض الشفيف إلى نفسى فرافقنى لفترة طويلة من ذلك الصباح، ولا أزال أتذكر حتى الآن صورة هذه الأم الصغيرة الجميلة وهى تدفع بابنها الطفل فى اتجاه الكعبة وتهمس له طالبة منه دعاء الصامتين!.

* * *

فى ميناء الإسكندرية منذ أكثر من عشرين سنة كنت أقف على الرصيف وسط عشرات من الرجال والنساء والأطفال ينتظرون ذويهم العائدين بالباخرة من إيطاليا، وبيننا وبين الممر الذى يمشى فيه الركاب من باب الباخرة إلى صالة الجمرك حاجز من السلاسل الحديدية، وقد بدأ الركاب يغادرون السفينة فلا يكاد يظهر أحدهم أمامنا حتى يتهلل أهله المنتظرون ويلوّحون له بحرارة وابتهاج ويقولون له: حمدًا لله على السلامة، ويبادلهم الراكب كلمات الفرح والشوق والابتهاج ويلوح لهم بحماس قبل أن يتخذ طريقه إلى صالة الجمرك ويغيب عن الأنظار، وكغيرى من المنتظرين ابتهجت برؤية من كنت أنتظره ولوحت له بيدى بحرارة وتبادلت معه كلمات الترحيب والتهنئة بسلامة الوصول، وقبل أن أغادر موقعى إلى الباب الخارجى للميناء لمقابلته، رأيت راكبًا فى الأربعين من عمره ومعه زوجته وطفلان، يتجهون إلى صالة الجمرك والرجل يقول للمنتظرين بابتسامة حزينة:

– ونحن.. ألا من أحد يقول لنا حمدًا لله على السلامة!.

فمصمصت بعض السيدات الواقفات بجوارى شفاههن تأثرًا وقالت أكثر من واحدة: يا عينى!. ووجدت نفسى بغير أن أدرى ألوح له بيدى قائلاً: حمدًا لله على سلامتكم!. فتتسع الابتسامة الحزينة على شفتيه ويشكرنى بامتنان ثم يتوجه بأسرته لباب الخروج وأستغرق أنا

في تأملاتي فأتساءل . . ترى ماذا قطع بينه وبين الأهل فغابوا عن انتظاره؟ . ومن أي رحلة غربة طويلة تقطعت خلالها الأسباب بينه والأهل رجع؟ . وأتذكر كلمة السيدة التلقائية : يا عيني ! . فأفسرها في ذهني بأنه : يا عيني حقًا على من لا أهل له ولا أحباء ولا وطن ينتظره فيه من يسعدون برؤيته ويفتقدون غيابه وتفسد عليّ كلمات هذا العائد الذي لا ينتظره أحد ، بعض ابتهاجي بعودة من جئت إلى الميناء لاستقباله ! .

* * *

في بيت إحدى قريباتي منذ بضع سنوات ، فاتني حضور زفاف ابنتها لسفري وقتها إلى الخارج فتوجهت إلى بيتها بعد العودة مهنئًا ومعتذرًا ، وأرادت أن تعوضني عن بعض ما فاتني فعرضت عليّ فيلم الفرح في الفيديو واجتمعت الأسرة حول التليفزيون تتابعه معي وهم مبتهجون ويستعيدون ذكريات الحفل السعيد ، وبدلاً من أن أشاركهم ابتهاجهم إذا بي أركز أنظاري على شاب من أفراد فرقة الزفة بدا لي نحيفًا وسقيمًا وهو يدق بيده على المزهر الكبير ووجهه تكسوه علامات الألم والإجهاد والضيق ، فأنفصل تمامًا عمّن حولي وأتخيل أن هذا الشاب مريض بالكلى والسكر لكنه يغالب آلامه وأمراضه من أجل لقمة العيش . وأنه يغني للسعداء في ليلة زفافهم وهو الحزين المطعون في قلبه ومشاعره الذي فشل في أن يتزوج بفتاته بسبب مرضه وفقره وقلة حيلته . . فيعد نفسه بعد أن فقد الأمل في الزواج بمن يحب ، بأن يزوج شقيقه الوحيد الصغير ذات يوم ويقسم على أن يرقص بين يديه في ليلة زفافه ابتهاجًا ولو فاجأته غيبوبة السكر ! . ثم استغرقت في تفاصيل هذه القصة الحزينة التي نسجتها في خيالي وكتبتها فيما بعد بعنوان « ليلة سعيدة » وانتهى عرض الفيلم فترك أثره البهيج على الجميع ما عداي ! .

* * *

في مكتب لنقل الأثاث بالسيارات منذ حوالي ثلاثين عامًا . . جلست مع شقيقي منتظرًا انتهاء صاحب المكتب من الحديث مع رجل مُسن بسيط المظهر وشاب صغير لا أدري لماذا شعرت بانكساره وحزنه بالرغم من أن المقام لا يثير الأحزان ، وكان الرجل يتفق مع صاحب المكتب على استئجار سيارة لنقل أثاث هذا الشاب الصامت إلى بيت الزوجية الجديد ، والتفت صاحب المكتب إلى الشاب مهنئًا وسأله عن حجم الأثاث المطلوب نقله ، فراح الشاب يصفه له في حرج ، فإذا به لا يعدو بضع قطع بسيطة من الأثاث الرخيص ، فقال له صاحب المكتب إنه لا يحتاج لسيارة كبيرة وإنما إلى سيارة نصف نقل صغيرة ثم حدد الأجر المطلوب ، فرجاه الرجل المسن تخفيضه لأن هذا الشاب هو ابن شقيقه . . ويتيم . . ولا سند له ولا مال ، وقد دبر تكاليف زواجه بمعجزة من معجزات السماء ولربما اقترض أيضًا أجرة هذه السيارة ! . والشاب يستمع لما يقول عمه حاني الرأس وبؤس الدنيا كله في وجهه ، فيستجيب صاحب المكتب لرجاء الرجل ويخفض الأجرة بعض الشيء . . ويشكره العم داعيًا له بالخير وينصرف مع ابن شقيقه ، وقد حلّ على المكان كله جو من الشجن الغامض الثقيل وننهي مهمتنا مع صاحب المكتب ونخرج وليس في مخيلتي سوى صورة هذا الشاب المنكسر وعمه يترافع عنه وعن ظروفه فيخطىء التعبير أحيانًا ويجرح كرامته بغير قصد .

* * *

أمام بيت إحدى فتيات الأسرة بالمدينة الصغيرة . . والليلة ليلة زفافها وقد وقفت العروس الشابة إلى جوار عريسها أمام البيت واصطفت أمامهما فرقة الزفة تغني أغانيها البهيجة ، ومن حولهما الأهل

والأصدقاء، وقفت بين الواقفين أحضر الزفة التى ستطول لنصف ساعة على الأقل قبل أن ينتقل العروسان إلى نادى المدينة. ويشهدا الحفل الساهر ثم يسافرا بعده إلى بيت الزوجية فى مدينة أخرى. وتأملت العروس الشابة وهى واقفة عند مدخل باب بيتها الذى تربّت فيه بين إخوتها وأهلها، وآن لها الآن أن تغادره إلى بيت آخر ومدينة جديدة، فإذا رجعت إليه بعد ذلك فكما يجىء الضيف إلى بيوت الآخرين لفترة قصيرة وإقامة مؤقتة، وقد تبدد من نفسها إلى الأبد إحساس المقيم أو صاحب البيت، فإذا بى أشعر بأسى غير مفهوم وسط دقات الطبول وأغانى المنشدين، وأتلفّت إلى صديقى الواقف إلى جوارى الذى لا تربطه صلة قرابة من أى نوع بالفتاة أو بعريسها فأجد الدموع فى عينيه.. وأنظر إليه متسائلاً فيقول لى معتذرًا: عفوًا فأنا لا أستطيع أن أحبس دموعى كلما شاهدت فتاة صغيرة تغادر بيت أهلها وأمها وإخوتها لتذهب إلى بلد آخر غريب عنها وحياة جديدة مجهولة لها لا تعرف إن كانت ستسعد بها أم ستشقى؟. فهززت رأسى متفهمًا وأنا أشعر لأول مرة بأنى قد وجدت من يشاركنى هذا الإحساس الغامض ويعبّر عنه بما لا أستطيع من كلمات!.

* * *

لا مكان محددًا.. ولا تاريخ أيضًا لهذا الموقف، وإنما هى أية لحظة يستمع فيها الإنسان لأغنية لا تبدو للآخرين حزينة ومع ذلك فإنها تترك فى نفسه أثرًا من الشجن لا يعرف له تفسيرًا، والقائمة طويلة لكنى أتوقف منها أمام أغنية ليلى نظمى القصيرة «عشرين والله يا حبايبنا عشريين». وأغنية سيد مكاوى «حلوينَ من يومنا والله وقلوبنا كَويسه».. وأغنية نادية مصطفى «سلامات سلامات ياحبيبنا يا بلديات» إلى آخر هذه الأغانى الموحية بالشجن بالرغم من أن كلماتها قد تدعو للابتهاج بالحياة.

* * *

فهل ترى تفسير صديقى هاوى التحليل النفسى صحيحًا وأنه لا داعى للقلق حقًا بشأن هذه الميول الاكتئابية.. أم تُراك ترى أن الأمر ليس بهذه البساطة ويتطلب استشارة متخصص فى علم النفس وليس مجرد هاوٍ له كصديقى هذا؟.

خلف النافذة

هل تذكر ذلك الفيلم الأمريكي القديم الذى كان يحمل فى نسخته الأصلية اسم النافذة الخلفية، وقُدِّم إلينا فى دور العرض بالقاهرة منذ أكثر من عشرين عامًا تحت اسم خلف النافذة؟.

لقد كان هذا الفيلم الذى أدى دور البطولة فيه النجم الأمريكى القديم جيمس ستيوارت، يحكى قصة مصور صحفى شاب أصيب فى حادث بكسر مضاعف فى ساقه وغادر المستشفى ليقضى فترة النقاهة وحيداً فى مسكنه، فراح يسلى أوقات وحدته الطويلة بالجلوس فوق الكرسى المتحرك وراء النافذة الخلفية المطلة على منور العمارة الضخمة، ومراقبة أحوال سكان العمارة، وتأمل علاقاتهم، فرأى الزوجة صغيرة السن التى تتدلل على زوجها المسن، ورأى الفتاة التى تمضّى أكثر أوقاتها فى الرقص وأداء التمارين الرياضية ومحاولة لفت انتباه شاب وسيم من جيرانها، ورأى الشاب المتعاجب الذى لا تحلو له ممارسة الرياضة واستعراض عضلاته المفتولة إلا فى شرفة البيت، والزوجين اللذين يتبادلان العطف والحب، والزوجين الآخرين اللذين يتبادلان الكراهية الصامتة والجفاء إلخ، إلى أن شاءت له الظروف أن يشهد لحظة قدرية تحدّد خلالها مصير إنسانة، وكادت نفس هذه اللحظة تحدد مصيره هو نفسه، حين رأى من نافذة إحدى الشقق رجلاً يعتدى بالضرب

على سيدة شابة لعلها كانت تجمعها به قصة حب سابقة وانتهت من جانب المرأة، فطاردها الرجل وانفعل الاثنان فى المناقشة فهوى عليها بقبضته وسقطت على الأرض فواصل ضربها بشىء ثقيل حتى لفظت أنفاسها الأخيرة، وجرى كل ذلك أمام أنظار المصور الشاب فى جلسته خلف النافذة فلم يجد ما يفعله سوى أن يسجل الجريمة لحظة بلحظة بكاميرته الصحفية، ولمحه القاتل وهو يصوب الكاميرا إليه، فسعى إليه فى مسكنه ليقتله ويقضى على شاهد العيان الوحيد على جريمته، وبعد صراع طويل بينه وبين المصور القعيد أنقذته العناية الإلهية من براثن القاتل، ووصلت الشرطة التى استنجد بها المصور فى الوقت المناسب فأنقذته فى اللحظة الأخيرة.

هل تذكر هذا الفيلم؟. لقد شهدت أنا أيضًا من حيث لا أرغب لحظة قدَرية مماثلة.. لم أسجلها بكاميرتى كما فعل ذلك المصور الشاب، لكنى سجلتها بكاميرا الذاكرة فانحفرت فيها وظلت تطاردنى بإيحاءاتها الكئيبة لفترة طويلة من حياتى.

فلقد كنت فى ذلك الوقت أقيم فى شقة صغيرة من غرفتين فى حى قريب من جامعة القاهرة التى تخرجت فيها قبل عام واحد، وكنت أمر وقتها بمرحلة كئيبة من مراحل حياتى، فلقد رحل أبى (يرحمه الله) عن الحياة قبل أيام وأنا فى الواحدة والعشرين من عمرى، فتزلزل كيانى كله، ورجعت بعد أيام العزاء فى مدينتى الصغيرة، إلى عملى بالأهرام وحياتى بهذه الشقة الصغيرة فثقلت على وحدتى فيها وجفانى النوم، فكنت لا أستسلم له كل يوم قبل أن تشرق الشمس وأنهض من فراشى مفزوعًا بعد ساعتين أو ثلاث فأهرول مغادراً الشقة إلى عملى، وأقضى يومى كله فى العمل وربما غلبنى الإجهاد من أثر قلة النوم، فلا أرجع

للشقة لكى أستريح فيها وإنما أستسلم لبعض الوقت لنوم متقطع على مكتبى عند الأصيل ثم أنهض لأغسل وجهى، وأبحث عن صحبة الزملاء والأصدقاء لتشغلنى عن هواجسى وأحزانى، ولا أرجع إلى المسكن الخالى إلا بعد الواحدة صباحًا، ولا أجد ما أفعله فيه سوى الاستغراق فى القراءة إلى أن يترفق بى ملاك النوم بعد عذاب طويل.

وكانت شقتى هذه تقع فى الدور الأرضى فوق بدروم مقسم إلى غرف مستقلة تقيم بكل غرفة منها أسرة من أسر العمال والحرفيين، وكنت فى أوقات الصفاء أطلق على سكان هذا البدروم تعبير « الناس اللى تحت » إشارة إلى مسرحية نعمان عاشور الشهيرة التى كانت تحمل نفس الاسم، كما كنت أتأمل حياة هؤلاء الناس.. وأعايش شواغلهم وهمومهم على البعد، فقد كانت أصواتهم تتسلل إلىّ رغما عنى عبر النافذة الخلفية لغرفة نومى المطلة على منور العمارة، وكان هذا المنور هو مستراح سكان هذا البدروم فى الصيف، تتسامر فيه الزوجات والبنات فى الأصيل، ويجتمع فيه الرجال فى المساء فإذا تحدثوا سمعت كل ما يقولون فكأنما يجتمعون فى غرفتى، ومن هذه النافذة الخلفية سمعت نبأ اختفاء الابنة الكبرى لأسرة عامل بمحل بقالة، وولولة أمها عليها وندبها لها: « بعد أن كبرت؟. بعد أن كبرت تتركنا وتذهب إلى حيث لا نعرف؟». ومن هذه النافذة أيضًا سمعت بنبأ عودتها إلى أسرتها بعد أيام حين اكتشفت خداع الشاب الذى أغواها بالهرب معه ومراوغته لها فى الزواج بها وكيف أبت أن تسلمه نفسها وفضلت أن ترجع لأبيها « ولو ذبحها » على أن تمضى معه فى طريق الضياع.

وسمعت الكثير والكثير حتى ألفت أصوات هؤلاء « الناس اللى تحت » واعتدت أن أميز شخصياتهم منها كما ألفت أن أسمع أحدهم يوقظ زوجته من نومها فى الخامسة من صباح كل يوم لكى تذهب إلى المخبز القريب وتشترى منه كمية محددة من أرغفة الخبز لتقوم بتوزيعها كراتب يومى على بعض الأسر وبعض مطاعم الفول وتعين زوجها بهذا الرزق الشحيح على حياة أسرتها، و ألفت سماع سيدة أخرى وهى توقظ زوجها باحترام شديد لكى يذهب إلى عمله فى محل البقالة، وكيف ينهض الرجل كل يوم ويقول لزوجته بوقار يليق بالعظماء: « صباح الخير يا فلانة!. كما ألفت أن أسمع أيضًا معاتبة زوجة طيبة لزوجها الوسيم المتعاجب الذى ينفق بعض دخله كعامل نقاشة على شراء زجاجة من أردأ أنواع الخمور من حين إلى آخر، وتذكيرها له برفق بأن أبناءه أحق بثمن هذا السم الذى يضر بصحته.

فإذا لمزته بعض الزوجات فى مجلس الأصيل ونوّهن بتكاسله عن العمل حتى لتضطر زوجته للعمل نيابة عنه فى بعض الأيام لتلبى مطالب الأسرة، سمعت نفس هذه الزوجة تدافع عنه بحرارة فى غيبته وتلتمس له العذر فى خلافاته مع مقاول العمل وتنفى عنه كل تقصير، فتضحك الزوجات ويغمزنها بأنه « الحب » الذى يغفر له عندها كل نقيصة!.

إلى أن كنت فى فراشى ذات ليلة أقرأ فى كتاب لا أزال أذكره حتى الآن وهو كتاب « عشرة أيام هزت العالم » للصحفى الأمريكى جون ريد الذى شهد قيام الثورة البلشفية فى روسيا فى أكتوبر عام ١٩١٧، فإذا بى أسمع دبيب الحياة يتسلل إلى بدروم « الناس اللى تحت » مع صوت الرجل الذى يوقظ زوجته بائعة الخبز كل صباح. وترقبت أن أسمع نداءه التقليدى لها مرتين أو ثلاثًا ثم تنهض الزوجة وتستعيد نشاطها، وأسمع وقع قدميها وهى تغادر البدروم. ولم يتأخر النداء عن موعده، لكنى لاحظت هذه المرة أن صوت الرجل يعلو أكثر من المعتاد وهو يقول لها:

– يا فلانة . . يا فلانة . . اصحى قبل أن يفوتك موعد « الراتب » ! .

ولم أسمع صدى للنداء وإنما سمعت الرجل يعود لمحاولة إيقاظها بصوت أعلى وبشىء من الضيق :

– يا فلانة مضت ربع ساعة وأنا أحاول إيقاظك ماذا جرى لك؟

ولم أسمع للمرة الثانية أى إجابة .

وواصل الرجل الإلحاح على زوجته للاستيقاظ وقد ازداد ضيقا بكسلها فصاح :

– وبعدين معاك يا فلانة؟ . هل تنامين طوال النهار؟ . ألف مرة طلبت منك أن تنامى مبكرًا لكى تستيقظى بسهولة بدلاً من هذا العذاب كل يوم اصحى يا امرأة! .

لكن الزوجة واصلت الاستسلام فيما يبدو لسلطان النوم اللذيذ ولم تستجب للنداء ، فازدادت نبرة الضيق فى صوت زوجها ، ومدَّ يده إليها فيما يبدو ليهزها بعنف وهو يقول :

– يا فلانة اصحى . . اصحى . . ما هذا الوخم؟ . والله لئن لم تستيقظى الآن لأتركنك وأخرج إلى عملى . . وذنبك على جنبك ! .

وفى كل مرة يصيح الزوج مناديًا زوجته يتشتت تركيزى فى القراءة فأضيق بهذه المقاطعة لكنى أعزى نفسى بأنها لن تطول ، ولن تلبث الزوجة أن تنهض من نومها معتذرة ثم يخرج الزوجان طلبًا للرزق ، ويحل الهدوء ، فتشاغلت عن هذه المقاطعة وعدت للتركيز فيما أقرأه . . فإذا بى أشعر بشىء طارئ يلفت انتباهى ويدفعنى دفعًا لمتابعة هذا « المسمع » الذى اقتحم علىّ خلوتى ! . فلقد تحولت نبرة صوت الرجل من الضيق إلى شىء من القلق وهو يقول :

– يا فلانة . . يا فلانة . . ماذا جرى لك اليوم؟ . اصحى . . يا بنت الناس اصحى .

ثم ازدادت نبرة القلق فى صوته وخالطها لأول مرة شىء جديد من الخوف فسمعته يقول :

– يا فلانة . . يا فلانة . . يا فلانة . . استر يا رب . . استر يا رب .

فتسلل بعض هذا القلق من صوته إلىّ ووجدتنى أضع الكتاب جانبًا وأركز كل انتباهى معه وهو يحاول إيقاظ زوجته ، وأترقب بلهفة اللحظة التى تستجيب فيها للنداء ، أما هو فقد واصل النداء على زوجته بخوف متزايد وقد عادت إلى صوته من جديد نبرة الرفق والعطف واختفت نبرة الضيق والتهديد ، إلى أن سمعته فجأة يصرخ : الحقونى يا ناس . . الحقونى يا ناس . . فلانة ماتت . . فلانة ماتت . . لا حول ولا قوة إلا بالله . . لا حول ولا قوة إلا بالله . .

ثم ينفجر فى الصراخ والعويل والولولة . . وتتصاعد الأحداث فى هذه اللحظة القدرية المؤلمة فأسمع وقع خطوات تهرول وأصوات رجال ونساء يتحدثون . . وأسمع الرجل الذى كان قبل لحظات ينهر زوجته ساخطًا لكى تنهض من نومها يولول متشكيًا ويقول : أين أذهب بأولادى الخمسة يا ربى . . لماذا تركتنى فى نصف الطريق يا فلانة؟ . والجيران من سكان البدروم من حوله يَهدئون من روعه ويشدون أزره وقد خيّم على المكان كله ظل ثقيل من الكآبة والوجوم ، فلقد كانت الزوجة المكافحة بين يدى خالقها منذ وقت لا يعلمه إلا الله وزوجها يحاول إيقاظها لتخرج إلى الحياة وتواصل الكفاح فيها من أجل الرزق! .

وكان من سوء حظى أن شهدت هذه اللحظة القدرية بكل مفارقاتها المؤلمة ، فضاعفت من اكتئابى وضيقى وأحزانى ويئست من أية محاولة

للنوم بعد ذلك فارتديت ملابسي وغادرت مسكني في السادسة صباحًا لأذهب إلى عملي بلا نوم، ورأيت وأنا أغادر العمارة الرجل المنكوب يقف أمام مدخلها يبكي بين عدد من جيرانه فتقدمت منه بلا سابق معرفة وواسيته في مصيبته، وسمعته وأنا أبتعد عنه يقول لمن معه:

– ظللت أوقظها من النوم ساعةً طويلةً بغير أن تتحرك!.

ولأيام بعدها عجزت عن النوم في هذا المسكن الخالي فحملت حقيبتي منه ونزلت ضيفًا على أحد أقاربي في حي بعيد، وكلما خلوت إلى نفسي سمعت صوت الرجل في مخيلتي وهو ينهر زوجته «لكسلها» و«وخمها» ثم وهو يولول عليها بعد لحظات أخرى معلنًا رحيلها عن الحياة.

لقد كانت لحظة قدرية فريدة قدر لي أن أعايشها كما عايش ذلك المصور الصحفي الشاب جريمة قتل جارته الشابة من خلف النافذة، ولو عايشها معي أمير القصة القصيرة أنطون تشيكوف لنسج من أحداثها قصة تعيش مع الزمن، أما أنا فقد لاحقتني لفترة طويلة وأرقتني ثم سقطت في دائرة اللاوعي وظلت كامنة فيه إلى أن طفت إلى سطح الذاكرةِ منذ فترة قريبة ووجدتني أرويها لك!.

أهلاً.. مع السلامة!

هذا هو ملخص «القصة» كلها!

قصة الحياة.. والإنسان.. والحب.. والنجاح والمنصب والصحة.. والشباب.. وكل شيء في الوجود! «أهلاً» في البداية.. و«مع السلامة» في النهاية.. «والمسرح الكبير» الذي نعيش فوقه لا تتوقف فيه العروض ولا يملّه المشاهدون ولا يتعلمون أيضًا الكثير منه!. وفي كل يوم هناك موسيقى للافتتاح وأنغام للختام.. وستار يرفع.. وستار يسدل!

ومشكلة الإنسان أنه يبتهج كثيرًا بالبداية.. ويحزن كثيرًا أيضًا للنهاية مع أنها كانت متوقعه قبل البداية.

وفي الفيلم القديم «الملك وأنا» قال ملك سيام في القرن الثامن عشر للمدرسة الإنجليزية مسز آنا وهو يرقد في فراش الموت مستسلمًا لأقداره: إن من أصعب دروس الحياة أن يتعلم الإنسان كيف يقول وداعًا! وبعض شقاء الإنسان ينجُم عن عجزه عن أن يقول في الوقت المناسب «وداعًا» لما يحب ويتقبل النهاية بشجاعة نفسية. وبعض معاناتاه ترجع إلى أنه قد يصر أحيانًا على الجري وراء القطار الذي غادر محطته ليحاول اللحاق به، وكلما زاد هو من سرعته واقترب من أمله أوغل القطار في البعد عنه تاركا له الحسرة والعجز والإحساس بالهوان.

ومن أحسن ما قرأت فى الفترة الأخيرة ما كتبه الروائى الأديب بهاء طاهر فى روايته الجميلة « الحب فى المنفى » على لسان بطلها مسلمًا بنهاية قصة الحب التى عاشها : حين تجيء النهاية فإنه يحسن ألا نُطيل فيها! إذ لا معنى « للإطالة » إلا مضاعفة العناء ومكابدة الحسرة لأن القطار قد غادر محطته بالفعل وانطلق بأقصى سرعته ولن يلتفت للمهرولين خلفه .

وفى الحب والحياة ينبغى أن يتعلم الإنسان أن يقول وداعًا فى الوقت المناسب ، وأن يتذكر دائمًا أن لكل شيء نهاية فلا يحاول عرقلة ستار الختام عن أن ينزل فى موعده ولا يعرّض نفسه للهوان بالتشبث بالأستار محاولاً تأخير إسدالها .

شكا لى صديق منذ فترة بأن قصة حبه التى دامت عشر سنوات كان خلالها وشريكته مثالَيْن للوفاء والعطاء والفهم المتبادل ، قد تحطمت على صخرة قرار شريكته فيها بإنهائها بعد أن ملّت انتظاره طوال هذه السنوات ويئست من قدرته على تنفيذ وعوده المتكررة لها بأن يطلق زوجته التى تجرع التعاسة معها .

وكان قد تعرف بها خلال إحدى رحلاته إلى مدينة الإسكندرية وأحبها وأحبته . . وتزوجها سرًا ورعى أسرتها وابنتها من زوج سابق ، واشترى لها شقة جميله كانت عش غرامها ، وتنقل بين حبيبته فى الإسكندرية . . وبيته وزوجته وأبنائه فى القاهرة طوال السنوات الماضية ، وراح يحلم باليوم الذى تنتهى فيه أعباؤه العائلية ويتخرج الأبناء فينفصل فى سلام عن زوجته الأولى ، وينقل أعماله إلى الإسكندرية ويعيش إلى جوار من أحبها وأحبته ما بقى له من عمره ، لكن الأيام أثبتت له عجزه عن أن يفى بوعده لحبيبته ، وأن قيوده العائلية أقوى كثيرًا من أن يستطيع تحطيمها . . فتخرج أكبر الأبناء ولم يستطع تنفيذ وعده بالانفصال عن زوجته ، وتخرجت ابنته ولم يستطع الإقدام على الخطوه المنتظرة . . وارتبطت الابنة بشاب ملائم فوجد نفسه مضطرًا « للوجود » فى حياة أسرته الأولى بأكثر مما يستطيع الظهور فى أفق حياة حبيبته ، وتصبرت الأخرى على أمل أن يتحقق الحلم الكبير ذات يوم ، لكن حياتها هى الأخرى شهدت تطورًا جديدًا ، فلقد ارتبطت ابنتها الوحيدة وهى دون العشرين بشاب وتعجلت الزواج منه وانتقلت إلى عشها الجديد . . ووجدت الأم نفسها وحيدة فى مسكنها لا يؤنس وحدتها إلا صوت الحبيب الغائب الذى يسترق اللحظات ليطمئن عليها . . فألحت عليه أن يفى بوعده وينتقل للإقامة الكاملة معها . . وماطلها بعض الوقت محاولاً تأجيل المحنة بقدر ما يستطيع ، لكنها ضاقت فى النهاية بمراوغاته وطالبته بحسم موقفه منها ، ولم تُخف عليه أن هناك من يتحين الفرص ليفوز بها ، وإنها وإن كانت تحبه إلا أنها لا تريد لنفسها أن تقضى ما بقى من عمرها فى انتظاره ، ولسوف تحصل على الطلاق ثم تراود نفسها على قبول من يخطب ودها ، ولعلها تستطيع أن تحبه ذات يوم قريب فتتزوجه وتنعم بجوار رفيق يكرس حياته لها ، ولا يتمزق بينها وبين حياة أخرى .

وتعذب صديقى كثيرًا . . وحاول إثناءها طويلاً عن قرارها ، لكنها كانت قد حسمت أمرها بعد طول انتظار وحددت له موعدًا نهائيًا للطلاق وحصلت عليه بالفعل وارتبطت بالآخر وجاءنى شاكيًا فلم أزد عن أن كررت عليه عبارة ملك سيام الحكيمة ، و طالبته بأن يعترف لنفسه قبل غيره بأن النهاية قد حانت وأنه لم يعد يجديه شيء أن يحاول عرقلة ستار الختام!

فلقد بدأت القصة « بأهلاً » بالحب وراحة القلب وصفاء الود ولابد أن تنتهى مادام عاجزًا عن الحسم والاختيار، بعبارة الوداع الرقيقة للحب والسعادة بغير مرارات ونزاعات تشوه القصة وتفسد عبق الذكريات.

وقبل شهور عاش أحد معارفى محنة مؤلمة حين تعرض لأزمة طارئة انتهت بخروجه من منصبه الخطير الذى كان فيه معقد الرجاء ومطمع الكثيرين، وقبل أن يغادر منصبه هذا زوّج ابنته الوحيدة ودعانى إلى حفل زفافها فى أكبر فنادق القاهرة وذهبت إلى الحفل فى الثانية صباحًا بعد أن أنهيت عملى فهالنى حين اقتربت من قاعته التى تتسع لألف من البشر أن رأيت زحامًا هائلاً يسد مدخل القاعة ويستحيل معه على أحد أن يدخلها فرجعت من حيث جئت يائسًا وصادفتُ خلال انصرافى عددًا كبيرًا من نجوم المجتمع وقادته يتجهون إلى القاعة المسدودة ويجاهدون لشق ثغره فى زحامها. ثم وقعت الواقعة وتغيرت الأحوال.. واتصلت به سائلاً عن أحواله فإذا به يجيبنى بصوت مختنق بالدموع شاكيًا من الوحدة.. والعزلة.. وانصراف الأصدقاء!

وسكتُّ متألمًا ثم سألته بحذر: من تقصدهم بكلمة « الأصدقاء » هل هم أصدقاؤك القدامى الذين عاشرتهم السنين الطوال؟ أم هؤلاء الأصدقاء الجدد الذين عرفتهم خلال حياتك العملية وتوليك لمسئولياتك الأخيرة!

فأجابنى بأن أصدقاءه القدامى بخير وأنهم يوالون الاتصال به وزيارته والاهتمام بأمرة أما من انصرفوا عنه فهم هؤلاء « الأصدقاء » الجدد الذين كانوا يتفننون فى إظهار الود له.. ومجاملته.. والتشوق إلى صحبته وهم أيضًا الذين انتفعوا كثيرًا بوجوده فى منصبه واستفادوا منه أيما استفادة.

فلم أتردد فى أن أصارحه بأن هؤلاء لم يكونوا أصدقاءه فى يوم من الأيام وإنما كانوا أصدقاء المنصب الذى كان يشغله وأنهم لا يستحقون الأسى عليهم ولا البكاء على قلة وفائهم، لأن هذه هى قواعد اللعبة بالنسبة لهم.. أن يقتربوا من صاحب المنصب الكبير ويستفيدوا منه، فإذا غادره تحولوا « بحبهم » ومجاملاتهم وشوقهم واهتمامهم إلى الوافد الجديد الذى يملك النفع والضرر لهم.. فلا تحزن عليهم.. ولا تأمل خيرًا فيهم واسعد بصداقة الأصدقاء الذين عرفوك وحفظوا لك الود فى كل الأحوال.

وتذكرتُ وأنا أتحدث إليه.. ما كتبه الأديب والمؤرخ الكبير الدكتور أحمد أمين فى كتابه « حياتى »، عن أحواله ومشاعره حين استقال من عمادة كلية الآداب بجامعة القاهرة فى الأربعينيات: « تركتُ العمادة وعدتُ أستاذًا، وخلت يدى من كل سلطة إدارية وأتتْ وزارة لا تعدّنى من رجالها، فلم يكن لى شأن فى علاوات وترقيات وليس لى قبول فى شفاعات، وإذ ذاك سفرتْ لى وجوه قبيحة من إنكار الجميل وقلة الوفاء.

هذا كان صديقى يوم كنت أستطيع نفعه، فلما سُلبتْ منى هذه القدرة تلَّمس الوسائل ليكون عدوى، فإن لم يجد أسبابًا اختَلقها، وإن لم يجد فرصةً لإظهار هذه الخصومه تعمّد إيجادها، وهؤلاء الذين كانوا يتهافتون على إقامة حفلات تكريم لى يوم انتخبتُ عميدًا فأرفضها وأرفضها، لم يفكروا فى إقامة حفلة وداع يوم تركت العمادة.

وهذه التليفونات التى كانت تدق كل حين للسؤال عن صحتى، وطلب موعد لزيارتى لإظهار الشوق أولا والاطمئنان على صحتى ثانيا

والرجاء فى قضاء مسألة ثالثة، لم تعد تدق إلا للأعمال الضرورية التى ليس منها سؤال عن صحة ولا إعلانُ أشواق!

وهذا صندوق البريد الذى كان يمتلىء بالخطابات المملوءة بالطلبات والرجاوات أصبح فارغًا إلا من خطابات عائلية أو مسائل مصلحية!

وهذه أيام الأعياد التى كان يموج فيها البيت بالزائرين من الصباح إلى المساء يهنئون بالعيد أصبحت كسائر الأيام أجلس فيها على المكتب أقرأ وأكتب ولا سائل ولا مجيب.

وهذه صورة للناس لم تكن جديدة علىَّ، فقد قرأت مثلها فى الكتب كثيرًا، وسمعت عنها فى الأحاديث كثيرًا وشاهدتها فى غيرى كثيرًا، ولكن لعل أسوأها أثرًا فى نفسى ما شاهدته من قلة الوفاء فى بعض طلبتى فقد كنت أعتقد أن الرابطة العلمية فوق كل الروابط، وأن حق الأستاذية فوق كل الحقوق، أما إن طالبًا يخرج على أستاذه ويخاصمه ويقدح فيه بالكذب والأباطيل فشىء لم أكن أرأيته فلما رأيته استعظمته وحزَّ فى نفسى وبلغ أثره أعماق قلبى، ولم أعد بعد ذلك أثق بالناس كما كنت أثق ولا أركن إليهم كما كنت أركن، فكانت إذا حدثت فصولَ من هذا القبيل. تكسّرت النصال على النصال،

وصرتُ أشك فيمن أصطفيه؛ لعلمى أنه بعض الأنام!

وعدت إلى الكتاب فهو أوفى وفىٍّ وخير صديق!»

ومع أن الصورة مؤلمة بالفعل.. إلا أنها لم تكن لتستحق من الأديب الكبير كل هذا الإحساس بالمرارة الذى دفعه إلى اعتزال الناس، وعدم

الثقه فيهم والاحتماء بالكتاب الذى رأى فيه الوفاء الذى لا يتغير.. فهذه طبائع البشر الذين جُبل بعضهم على الوفاء وجبل بعضهم على الجحود والتنكر لمن كانوا بالنسبة لهم معقد الرجاء.

والمصلحة لا قلب لها ولا مشاعر كما يقولون. وبعض دعاة البراجماتية والتفكير النفعى الذى لا يرتبط بالمبادىء، يرون فى القيم الإنسانية كالوفاء والحياء والصداقة «قيودًا» على حركة الإنسان تعرقل وصوله إلى أهدافه «ويبشرون» بنبذ كل هذه القيم «البالية» لمن أراد نجاحًا سريعًا فى الحياة العملية. وما أرخصه من نجاح وما أحقره من فوز!

غير أن المشكلة الأساسيه فى تقديرى هى أننا لا نعد أنفسنا جيدًا لتقبل «النهايات» والتواؤم معها، ولا تسلم منذ البداية بأن لكل شىء نهايته الطبيعية مهما طال المدى...، وأنه كما سعدنا بالبدايات المشرقة فمن العدل أيضًا أن نتقبل النهايات المحزنة ونسلم بها ونتواءم معها. فالإنسان يحتاج دائمًا إلى أن ينظر إلى الحياة «نظرة فيلسوف يرى الدنيا ألعوبة» كما قال جمال الدين الأفغانى ناصحًا تلميذه الإمام محمد عبده، فيرى الأشياء من فوق قمة الجبل صغيرة لا تستحق الأسى لها ولا الصراع من أجلها، ولا التشبث بها إلى أن يزيحه عنها وافد جديد.

وفى الحب والحياة هناك دائمًا بداية للقصة.. ونهاية لها وهناك «أهلاً».. «ووداعًا» لكل شىء فى الحياة من البَشَر إلى النجاح.. إلى الحب.. إلى الصحة والشباب والعمر وكل شىء.. وليس من طبيعة الحياة أن تتجمد عند طور البداية أو تستعصى على طور النهاية.

وكل فوز يحققه الإنسان فى حياته العملية بسيط مهما بدا للآخرين مبهرًا، وكل خسارة للسعادة الشخصية والأمان وراحة القلب مفجعة وإن

بدت للآخرين غير ذلك . . « وفندق البحر » الصغير سوف يؤدى مهمته الخالدة فى استقبال النزلاء الجدد وتوديع المغادرين بعد سداد الحساب . . إلى مالا نهاية !

« وفندق البحر » هو التعبير الذى وصف به الدنيا شاعر الألمان العظيم جوتة ، فى محاوراته مع صديقه الناقد الشاب إكرمان الذى ترجم لحياته وسجل العديد من آرائه ، فقال له :

« حين أتلفت إلى الوراء وأفكّر فى قلة عدد الباقين معى منذ أيام الشباب أرى الدنيا كفندق صغير من فنادق الشواطيء التى نلجأ إليها فى الصيف ، فحين نصل اليها نُصادق من وجدناه فيه قبلنا . . فلا يمضى وقت طويل حتى يغادر هؤلاء الفندق لانتهاء « إجازتهم » ويؤلمنا رحيلهم ونتحوّل نحن إلى الجيل التالى من النزلاء وتقوى العلاقات بيننا وبينهم ، لكنهم يذهبون هم أيضًا ويتركوننا وحدنا مع الجيل الثالث الذى يجيء إلى الفندق ونحن نهمّ بالرحيل عنه ونغادره بالفعل بغير أن تكون هناك بيننا وبينهم أية علاقة ! »

وهكذا تتوالى « حفلات » الاستقبال والتوديع بلا بداية ولا نهاية .

فهلاَّ تعلمنا هذا الدرس الصعب من دروس الحياة وهو أن نعرف كيف نقول : وداعًا . . ومتى نقولها بلا مراره؟

أحلام سعيدة!

كلما هل على الدنيا عام جديد توقف البعض ليراجعوا حسابهم مع العام الماضى . . وجددوا أحلامهم للعام الجديد ، وحين اقترب عام ٩٧ من المجيء سألنى مذيع شاب عن أحلامى لنفسى فى العام الجديد ، فأجبته بعد تفكير قصير بأنه فى مثل سنى فإن الأحلام تتواضع كثيرًا عما كانت عليه فى بداية الشباب حتى تكاد تنحصر غالبًا فى الصحة والستر وفى أن يحيا الإنسان حياته أو ما بقى له منها فى سلام مع نفسه ومع من حوله ، فإن شئت بعد ذلك الإسراف أو الاستغراق فى دنيا التمنيات فلعله يكون من أحلامى أن أعتزل ذات يوم قريب العمل الصحفى الذى بدأته وعمرى ١٧ عامًا وأن أتفرغ لحياة الكتابة الأدبية بلا مسئوليات ولا التزامات محددة أو أعباء إدارة فريق من البشر تكون مسئولاً عنهم وعن إرضاء طموحهم ، وتحقيق العدل بينهم وحثهم دائمًا على العمل والكفاح والإنتاج .

ولا غرابة فى أن يكون هذا هو حلمى الآن فى هذه المرحلة من عمرى ، ذلك أن إدارة البشر من أصعب المهام الإنسانية على وجه الإطلاق ، ونيل رضاهم جميعًا فى نفس الوقت من الأحلام شبه المستحيلة ، لأن بعض البشر لا يرضيهم إلا أن تعطيهم ما لا يحقَ لهم فيه ، وإلا أن تتغاضى عن تقصيرهم وأخطائهم وتساوى بينهم وبين من

يكدحون ويعملون وينتظرون أن تميزهم عن غيرهم من الكسالى، فإن أرضيت هؤلاء خسرت الآخرين وإن أرضيت الجميع خالفت العدل والحق والضمير.

أما حين تصبح مسئولاً عن «إدارة» نفسك وحدها فالأمر متروك لك كله، إن شئت أحسنت الإدارة وحققت العدل مع نفسك وجنيت ثمار ذلك، وإن شئت أسرفت على نفسك وأسأت إدارة قدراتك ودفعت ثمن ذلك أيضًا راضيًا.

وأيا كان العناء فلابد للإنسان دائمًا من الحلم بغد أفضل وأكثر تحقيقا للآمال، فأن يصبح للإنسان حلم يدغدغ مشاعره من حين إلى آخر ويخفف عنه جفاف الواقع، أفضل كثيرًا من أن يستسلم للإحباط والضيق واليأس من احتمال التغيير في يوم من الأيام. فقط ينبغي لنا أن تكون هذه الأحلام صغيرة ومتواضعة وفي متناول يد الإنسان إذا تسلح بالإرادة وسعى إلى تحقيقها بدأب. وفيما عدا ذلك فلا ضير في أن يؤمن الإنسان دائمًا مع بطل رواية «ذهب مع الريح» لمؤلفتها الأمريكية مارجريت ميتشيل بأنه: «في الغد دائمًا متسع لكل شيء».

* * *

وانصرف محاوري قانعا بما قلت له.. وسرحت أنا مع خواطري وتأملاتي فتذكرت ذلك الشاب الصغير «عصفور» بطل رواية «هموم شخصية» للروائي الياباني كنزا بورو الذي فقد فرصته في أن يصبح أستاذًا جامعيًا بسبب إدمانه الخمر ونجح صهره في أن يوفر له عملاً بأحد المعاهد العلمية كمحاضر بالأجر من خارج هيئة التدريس، فعاش حياته محبطًا، يداعبه حلم واحد هو أن يهرب من كل شيء ويسافر إلى إفريقيا ليعمل هناك ويمارس متعة اكتشاف الجديد وإثبات الذات في دنيا

مختلفة، فراح يدخر بصبر تكاليف رحلته الإفريقية.. ويقضي الساعات يتأمل خريطة إفريقيا التي حدد عليها النقطة التي سيهاجر إليها، ودخلت زوجته الشابة المستشفى لتضع مولودها فإذا بها تضع طفلاً مشوهًا كالمسخ يبرز من رأسه نتوء مخيف وينذره الأطباء بأن طفله سيعيش إذا نجا من الموت كالدمية أو كالنبات الذي يحس لكنه لا يتكلم ولا يفكر ولا يسعى في الأرض، ويخيرونه بين تحمل مسئوليته عنه ورعايته وقبوله كما هو، أوتوقيع إقرار برفض هذا المسخ من بدايته، فيبدأون في إضعافه تدريجيًا عن طريق المحاليل حتى الموت.

ويتردد الشاب الصغير المحبط أمام القرار الصعب لبعض الوقت، ويطرح الأمر على نفسه بأن عليه أن يقرر ما إذا كان يقبل هذا الطفل المشوه فيرعاه وينفق عليه كل ما ادخره لرحلته الإفريقية التي يحلم بها، وإما أن يتخلى عنه وعن حلمه ويصدر عليه حكم الموت. وبعد تردد غير قليل يؤثر تحقيق حلمه القديم ويوقع الإقرار المطلوب ويقضي أيامه برفقة زميلة قديمة له بالجامعة، انتحر زوجها الشاب وتركها وراءه تعيش بلا هدف وينفق عليها صهرها، ويعيش عصفور لفترة بين أحضانها وهو حائر في أمره لا يعرف هل اختار الطريق الصحيح لحياته أم لا، وبعد تطورات عديدة يرجع إلى نفسه ويسلم بأن «الشيء الوحيد الذي يستطيع الأبوان أن يفعلاه لطفلهما حين يجيء إلى الدنيا هو أن يرحبا به ويرعياه مهما كانت ظروفه الصحية» وأن هذا هو الطريق الوحيد لكيلا يظل هاربًا على الدوام من مسئولياته، فيرجع إلى المستشفى ويدفع مدخراته للرحلة الإفريقية تأمينا لتكاليف الجراحة المطلوبة لإزالة النتوء الكبير في رأس الطفل ويلغي قراره السابق برفضه، ويجري الأطباء الجراحة المقررة له فيتبين خلالها أن مخ الطفل لم يكن ناتئًا في هذا البروز المخيف وإنما كان ورمًا حميدًا تمت إزالته، فلا يلبث الطفل بعد

قليل أن يقترب من الهيئة الآدمية ولا تلبث ملامحه أن تتضح وتقترب من ملامح أبيه، ويرمقه الأب الشاب من خلف الزجاج وهو يقول لنفسه: يبدو أن الواقع يرغم الإنسان أحيانا على أن يحيا بشكل صحيح حين يعيش هذا الواقع ويكف عن محاولة الهرب منه!.

ثم يمضى لزيارة زوجته الشابة راضيًا عما فعل وعما اختار.. ومؤجلاً حلمه القديم بالسفر إلى إفريقيا، الى فرصة أخرى، ويشعر فى نفس الوقت بالامتنان لهذا الحلم الجميل الذى راوده خلال الأعوام الثلاثة السابقة، فلولاه لما احتمل حياته بعد ما أصابه من إحباط ويأس حين فقد فرصته فى العمل كأستاذ جامعى، ولولاه أيضًا لما وجد من مدخراته ما يدفعه للمستشفى لإجراء الجراحة لطفله ورعايته. كأنما يقول مع ذلك الأديب الأمريكى مؤلف قصة « جسور ماديسون »: أعلم أن أحلامى لم تتحقق.. لكنى سعيد رغم ذلك بأنها قد راودتنى خلال السنوات الماضية؟.

فالحلم واحة جميلة وسط الصحراء القاحلة يستريح فيها الإنسان بعض الوقت من هجير الحياة لكن القافلة لا تتوقف فى الواحة إلى النهاية.. وإنما تلتقط أنفاسها فيها بعض الوقت وتتزود بالماء والأمل.. والقوة.. لتواصل السفر من جديد!

* * *

وكالحلم الجميل أيضًا كانت الأيام التى يعيشها فى نفس الرواية الأستاذ ديشيليف الملحق بسفارة إحدى الدول الشيوعية السابقة بطوكيو، مع فتاته اليابانية الصغيرة التى لا تعرف أية لغة أخرى عدا اليابانية، وفى حين لا يعرف هو من اليابانية سوى بضع كلمات، ومع ذلك فلقد جمع الحب بينهما واختفى من سفارته وأقام معها فى شقة صغيرة بحى شعبى مزدحم وحين سعى إليه عصفور ليحذره من أن رجال السفارة يبحثون عنه لإعادته إلى بلده، وطالبه بالعودة معه قبل أن يقبضوا عليه، رفض العودة وفضل أن يُطيل أيام الحلم القصير لأقصى ما تسمح به الأقدار، فإذا جاء رجال السفارة بعد ذلك وقبضوا عليه لإعادته إلى بلده «فلسوف تفهم الفتاة بغير كلام أننى لم أهجرها بإرادتى وإنما تركتها رغمًا عنى.. وهذا يكفينى ويكفيها لأن يحتفظ كل منا للآخر بأجمل الذكريات».

ويسلم له عصفور بمنطقه.. منطق ارتشاف لحظات السعادة حتى الثمالة فى الحلم القصير قبل أن يرغمه الواقع على التخلى عنه، لكنه يتعجب للحب الذى يجمع بينهما وكلاهما لا يعرف لغة الآخر ويسأله كيف يتفاهمان؟..

ويجيبه الأستاذ ببساطة: إننا نتفاهم بالصمت!.. لأنه فى الحب الصادق لا يحتاج الإنسان لأن يتكلم وإنما لأن يحس وأن يتصرف بما يمليه عليه هذا الحب من سلوك وأفعال، ويكفى فتاته أن تعرف أنه قد عرض مستقبله كله للخطر من أجلها، لتقتنع بحبه لها، إذ هل هناك « كلام آخر » أبلغ تعبيرا عن الحب من هذا العمل الصامت!.

* * *

وفى رواية إنجليزية جميلة كانت السيدة العجوز تعمل فى بيت أسرة ثرية تذهب إليه فى الصباح وترجع منه إلى بيتها الذى تعيش فيه وحيدة فى المساء، وفى أحد الأيام شاهدت فستان سهرة جميلاً فى دولاب مخدومتها وسألتها عنه من أين اشترته وكم دفعت ثمنا له، وأجابتها السيدة بأنه من صنع مصمم الأزياء الشهير كريستيان ديور بباريس وبأنه من الموديلات التى لا يصنع منها إلا قطعة واحدة بناء على طلب

المشترى، وأن شراء فستان كهذا يتطلب حضور عرض الأزياء الخاص الذى تنظمه محلات كريستيان ديور بباريس من حين لآخر، واختيار الموديل ودفع ثمنه ثم تسلّم الفستان بعد أسبوع من الشراء.

ثم تنسى ربة البيت هذا الحديث العابر بعد قليل، لكن السيدة العجوز لا تنساه أبدا، فلقد تعلق أملها أو حلمها بأن تقتنى فستانا كهذا الفستان من صنع كريستيان ديور مهما كلفها ذلك من مال وجهد، وتبدأ فى ادخار كل قرش تستطيع ادخاره، وتحرم نفسها من كل شيء لكى تحقق هذا الحلم السعيد فى يوم من الأيام، وبعد ثلاثة أعوام طويلة من الادخار والحرمان كان قد توفر لها ما يكفى لشراء تذكرة السفر إلى باريس والإقامة فى فندق صغير وشراء الفستان، وسافرت بالفعل إلى هناك وتدخلت الأقدار لمساعدتها على تلبية رغبتها فتعاطفت معها إحدى سيدات دار كريستيان ديور وساعدتها على حضور عرض الأزياء الخاص وسط سيدات المجتمع المرموقات وأثرياء القوم، وحظيت بصداقة كونت فرنسى شاب أعجب بها وبلطفها فدعاها إلى بيته وطاف بها أنحاء باريس بسيارته الفاخرة ليعرفها بمعالمها، ووجدت السيدة العجوز نفسها فجأة موضع اهتمام أكثر من سيدة جميلة شابة تطمح إلى صداقة هذا الكونت الوسيم، وعاشت أسبوعًا حافلاً بالزيارات المثيرة واللقاءات الهامة مع الكونت الشاب والسيدات اللامعات، ورجعت إلى لندن بعد أسبوع وهى تحمل الفستان النفيس الذى تكبدت الكثير من أجله، وسألتها جارتها المسنة: أكان هذا الفستان يستحق كل ما تحملت من أجل شرائه، فتجيبها راضية: نعم، يستحق كل ذلك وأكثر، فلقد حققت به حلمًا جميلاً راودنى وعشت أياما سعيدة حافلة، وكسبت صداقة أشخاص ممتازين ستتصل الصداقة بيننا للأبد عن طريق الرسائل وسيكتبون إلىّ فى الأعياد وأكتب إليهم.

ثم نامت ليلتها الأولى بعد العودة سعيدة راضية وصحت فى الصباح على واقع حياتها البسيطة فخرجت لتركب الأتوبيس وتتوجه إلى بيت الأسرة التى تقوم بخدمتها، وهى فى قمة النشاط والحيوية والحماس.. لأن الحلم لم يصرفها عن واقعها البسيط وإنما أعانها وأعطاها دفعة قوية لمواصلة المشوار.

* * *

وفى الستينيات كنت أزور الإسكندرية كثيرًا وخاصة فى فصل الشتاء وأجلس فى مقاهى وسط المدينة مستمتعًا بصحبة أصدقاء الطفولة الذين فرقت الحياة بيننا واختاروا الإقامة بالثغر، وكان يطوف بنا فى هذه المقاهى رجل عجوز يرتدى بدلة سهرة سوداء قديمة رثة ويحمل فى يده عودًا، فيقف إلى مائدتنا لدقائق ويعزف على عوده ويغنى بصوت لا بأس به لبعض الوقت وأنفاس الخمر تنبعث منه، ثم ينصرف عنا شاكرا لنا ما نهبه له من هبة صغيرة، وذات ليلة تجاذبت معه أطراف الحديث وسألته عن اسمه، وحياته.. وأين تعلم الغناء والعود.. إلخ. فأجابنى عن كل ما سألت، ثم سألته عن أحلامه وهو فى هذه السن فإذا به يجيبنى بأن حلمه الوحيد هو أن يسافر للقاهرة وأن يُسمعها صوته وألحانه وفنه.

ثم سرح ببصره بعيدًا وهو يتأوه كأنما يستغرق فى حلم بعيد المنال ويقول: يا سلام يا على يا إمام لو ذهبت إلى القاهرة وسمعك الناس فيها!.

وغادرنا الرجل بعد قليل وأنا أتأمل حلمه «الكبير» وأتعجب له والقاهرة لا تبعد عن مدينته أكثر من مسيرة ساعتين بالقطار ومع ذلك فلقد تحدث عنه وكأنه حلم مستحيل!.. ومن عجب أننى رأيته بعد ذلك على مدى بضع سنوات وسألته نفس السؤال فكان يجيبنى فى كل مرة

بنفس هذه التأوهات الحسيرة، متخيلاً ماذا يمكن أن يكون من أمره لو سافر إلى القاهرة وسمعه كبار الملحنين بها، وظل هذا الحلم العاجز يراوده حتى نهاية العمر فيما يبدو دون أية محاولة لتحقيقه مستروحا في الحديث عنه راحة مؤقتة، تخفف عنه بعض ما يشعر به من إحباط وهزيمة وخيبة أمل.

ولا بأس بذلك إذا لم يعق الحلم تواصل الإنسان مع حياته وواقعه.. فلكل إنسان دائمًا أحلامه الصغيرة والكبيرة، التي قد يسعى لتحقيق بعضها، وقد يكتفي من الأخرى بتخيل عالمها الجميل واستشعار نسمات الراحة وهو يستعيدها في مخيلته.

* * *

ولقد كان حلم بطل مسرحية «سوء تفاهم» لألبير كامي بعد أن حقق نجاحه وثراءه هو أن يرجع إلى بلدته الصغيرة التي هجرها في شبابه وأن يرى أمه وأخته اللتين تخلى عنهما لأقدارهما في ذلك الحين ورجع بالفعل إلى بلدته وأقام في الفندق الصغير المهجور الذي تملكه أسرته. فكانت مأساته أن قتلته أمه وأخته وهما لا تعرفان شخصيته لكي تسرقاه بعد أن ساءت الأحوال ولم يعد الفندق الصغير الذي تملكانه يوفر لهما تكاليف الحياة!.

* * *

وكان حلم بطل رواية «حضرة المحترم» لنجيب محفوظ الذي عمل له طوال حياته هو أن يصبح ذات يوم مديراً عاماً للمصلحة التي بدأ حياته موظفًا صغيرًا بأرشيفها، يجلس في حجرة المكتب الواسعة كالملعب.. ويخاطبه الموظفون في مكاتباتهم بلقب حضرة صاحب السعادة المدير العام وينشر العدل في إدارته كما ينبغي لمن كان مثله. فواصل العمل

بإخلاص شديد سنوات طويلة حتى أصبح حجة في اللوائح والقوانين، وحقق خطوات موفقة على طريق الترقي في السلم الوظيفي، ثم خلا في النهاية منصب المدير العام وأصبح هو المرشح الوحيد له. فإذا به يسقط مريضًا بالشلل والقلب، والضغط والسكر، ويمضي أيامًا حرجة معلقًا بين الحياة والموت، والوزير المختص يتأهب لتوقيع القرار الذي انتظره طوال عمره، ويتركنا نجيب محفوظ في نهاية الرواية ونحن لا نعرف هل عاش الرجل ليستمتع بتحقيق الحلم الذي راوده طوال ٣٥ عامًا أم كانت يد القدر أسبق إليه من أن يعيش «الحلم» الذي تخيله معظم سنوات العمر.. فما أكثر ما تمنيت وأنا أقرأ هذه الرواية أن يطول العمر ببطلها لكي يجني ثمرة كفاحه، ويستمتع بتحقيق الأحلام ولو لبضعة شهور.

وما أكثر ما تمنيت ألا تضاعف الحياة من آلامها للبشر حين تؤجل تحقيق الأحلام إلى اللحظة التي ينزل فيها ستار الختام، فلا يكاد الإنسان يسعد بتحقيق حلمه أخيرًا حتى يتحسر على العمر الذي ضاع في الكفاح ولمّا يتح له أن يسعد بالراحة بعد العناء.

إذ ليس أقسى على الإنسان من الأحلام الموءودة إلا الأحلام التي تتحقق بعد فوات الأوان، فالأولى يخفف على الإنسان إحباطه معها استمرار الأمل في الغد الذي يتسع لكل شيء، أما الثانية فإنه يضاعف من شقاء الإنسان بها حسرته على أنها قد جاءت أخيرًا وهو يتسمَّع لحن الختام فكأنما كانت الرحلة كلها بلا راحة.. ولا سلوى.. ولا عزاء!.

ورغم ذلك كله.. فلا بد دائمًا للإنسان من أن يحلم بغد أسعد وأجمل وأفضل، ولا بد له أن يتعلق دائمًا بالأمل في رحمة الله، وفي أن ترقّ له الحياة ذات يوم وتسمح له بتحقيق الأحلام في الوقت المناسب وليس بعد فوات الأوان!.

ضحك كثيراً.. وبكى أكثر!

نعم . . ضحك كثيرًا . . وأضحك الآخرين . . لكنه بكى أكثر ، وانطبقت عليه مقولة أحد المفكرين الذى قال إن من عانى أعظم الألم . . تعلم كيف يضحك أبلغ الضحك .

ولا غرابة فى ذلك لأن الضحك هنا يصبح وسيلة للدفاع عن النفس ضد الموت قهراً وغماً وحزنًا ، ويصبح الإنسان فى هذه الحالة ممن قال عنهم المفكر الفرنسى ڤولتير إنهم يضحكون . . تفاديًا للانتحار !

ولا بأس بأن يضحك الإنسان دفاعًا عن النفس ضد الاكتئاب ولا بأن يلتمس السلوى والعزاء فى جوانب الحياة الأخرى المضيئة أو الأقل إيلامًا . . بل إن كلا منا مطالب فى بعض الأحيان بأن « يفلسف » حياته . . ويعمل بنصيحة هذا الساخر العظيم صمويل لانجهورن كليمنس الذى عرف باسم مارك توين ، فيتعلم كيف يتألم كما يتألم ممثل فى مسرحية الحياة ، ويتعلم أيضًا بوصفه أحد « المشاهدين » لهذه المسرحية أن يبتسم لألمه الشخصى !

تسألنى كيف يستطيع الإنسان أن يبتسم لألمه الشخصى الذى يدعوه للبكاء وللرثاء للنفس ، فأقول لك إن من الابتسام كذلك ما هو أبلغ تعبيراً عن المرارة من الدموع الساخنة ، وإن منه ما يمكن أن نسميه بابتسام

التسامح مع الحياة كأنما يقول لها الإنسان : تعذبت فيك كثيراً وتألمت كثيراً لكنى أغفر لك هذا العذاب وآمل فى أن تسمح لى الأيام بهدنة قصيرة من الآلام فى ختام الرحلة ، وقبل أن تعزف الموسيقى أناشيد الوداع . . أو كأن الإنسان يقول للحياة هذه العبارة الدارجة البليغة فى حكمتها : معلهش يا زهر ! فلا بد أن يأتى يوم أجد فيه السعادة والكرامة والأمان !

فإن لم يجىء هذا اليوم ، فيكفى الإنسان أنه قد عاش متعلقًا بالأمل فيه صامدًا فى وجه الرياح ، ضاحكًا تفاديًا للانتحار ، وباسمًا لألمه الشخصى ولآلام الحياة ناظرًا إلى الحياة نظرة فيلسوف يرى الدنيا ألعوبة ويرى كل شىء صغيرًا وإن بدا للآخرين كبيرًا .

وهكذا فعل هذا الأديب الأمريكى العظيم الذى عاش بين عامى ١٨٣٥ و ١٩١٠ ، فإذا كانت آلام حياته قد انعكست على سخريته فجعلتها لاذعة المرارة ، فلا غرابة فى ذلك ، ولا هو من العدل أن ننتظر منه أن تكون سخريته ناعمة وبهيجة كأنها سخرية شخص خالى البال من كل هموم الحياة وإنما الأقرب لطبيعة الأشياء أن تكون سخريته عابسة تثير فينا الابتسام والتأمل . . وأحيانًا المرارة . . فإذا ابتسمت لقوله مثلاً : « إذا تحدّاك أحد وأراد أن يتضارب معك . . فاخلع سترتك فى بطء متعمداً وأنت تنظر فى عينيه فى هدوء وتحدٍّ . . ثم اخلع صديريتك فى بطء أشد وأنت تواصل النظر إليه فى تحفز ثم شمر عن ساعديك بنفس البطء والهدوء والتحدى ، فإذا لم يكن خصمك قد فرّ من أمامك خلال ذلك . . فالأفضل لك أنت أن تولى الأدبار ناجيًا بنفسك » ! فلسوف تفكر معه أكثر مما تبتسم حين يقول ذلك :

« الفرق بين الإنسان . . والكلب هو أنك إذا التقطت كلبًا يكاد يهلك جوعًا وأطعمته واعتنيت به . . فلن يعضك هذا الكلب أبدا ! »

وإذا فكرت معه في مغزى كلماته السابقة فلسوف تكتئب قليلاً لسخريته العابسة من الإنسان حين يقول :

« إذا بلغت باب الجنة . . فاترك كلبك خارجها . . فدخول الجنة يتم على أساس مبدأ الرحمة . . ولو كان على غير هذا الأساس لبقيت أنت خارج الباب ودخل هو ! »

أو حين تقرأ له هذه العبارة الممرورة :

« يولد الناس . . ويؤلم بعضهم بعضا . . ثم يموتون !

أو هذه العبارة الأخرى الأكثر مرارة :

« الإنسان حيوان لكنه ليس وحشًا . . لأنه لا يصل للمستوى الأخلاقي الرفيع للوحوش . . فالوحش يقتل بدافع الجوع أما الإنسان فيقتل بدافع الحقد ! »

ولا عجب في هذه السخرية المريرة العابسة التي أضحك بها مارك توين قرّاءه فشغل بعضهم بالضحك عن تأمل فلسفته العميقة في أدبه وأعماله الروائية . .

فلقد ترجم أساه الشخصي حزنًا باسمًا ساخرًا من الحياة والإنسان والأيام وقد شهدت حياته من المآسي الشخصية ما يستحيل معه أن تخلو روحه من المرارة ، حتى ولو كان قد احترف كتابة الأدب الضاحك الساخر ، فلقد شهد وهو في سن الثانية عشرة موت أخت له وأخ ، وشاب شعر رأسه مبكرًا وهو في الثالثة والعشرين من عمره حين احترق أخ آخر له في انفجار باخرة بنهر المسيسيبي ، واشتد ضيقه بالحياة وهو شاب في سن الثلاثين فوجه فوهة مسدسه إلى رأسه لكنه لم يجد في نفسه الشجاعة لشد الزناد فنحَّى المسدس جانبًا وقرر كما قال عن نفسه فيما بعد أن يترجم تعاسته إلى سخرية مريرة وضاحكة من كل شيء في الحياة . ولم توفر له حياته الشخصية بعد ذلك مساحة كبيرة للضحك والابتهاج لكنه لم يتوقف رغم ذلك عن السخرية المريرة حتى اللحظة الأخيرة ، فلقد مات ابنه الأول عقب ولادته ، وأصيب ابن آخر له بالالتهاب الرئوي بسبب شرود ذهن أبيه عنه وسهوه عن أن يدثّره بدثار كاف خلال رحلة سفر قاما بها معا ، وسقط ابن ثالث له بعربته الصغيرة من فوق قمة تل بين الأحجار فكاد يهلك لولا أن أنقذه بعض المارة ، وحين بدأ يشق طريقه بنجاح في عالم الأدب والرواية وبدأ القراء يعرفون اسمه ويشترون كتبه قام بجولة لإلقاء محاضرات في بعض الجامعات الأمريكية ورجع منها سعيدًا بنجاحه فصدم بأن ابنته الجميلة الذكية « سوسى » قد لقيت وجه ربها خلال سفره في هذه الجولة . أما حين تسنّم قمة الشهرة والنجاح والثراء المادى ، وبدا له أن الحياة قد هادنته أخيرًا وقررت أن تمسح بيدها على جراحه . فلقد أمضت ابنته «جين» يومًا كاملاً في الإعداد لحفل الكريسماس وأعدّت شجرة عيد الميلاد ولفّت الهدايا بأوراق ملونة جميلة وكتبت على كل منها اسم صاحبها . . ثم قبّلت أباها قبلة المساء قبل أن تأوى لفراشها استعدادًا ليوم الكريسماس في الصباح التالي ونهض مارك توين من نومه في الصباح مستبشرًا بيوم عيد الميلاد ، فإذا به يصدم بأن ابنته الحبيبة قد فارقت الحياة خلال نومه ، وأنه قد فاجأتها نوبة صرع شديدة وهي تستحم فقضت عليها .

ولم يمض عام آخر على هذه المأساة، حتى كانت صفحة حياة مارك توين نفسه قد انطوت بكل آلامها وعذاباتها وسخرياتها اللاذعة والمريرة وبقيت لنا فكاهاته الشهيرة ورواياته عميقة المغزى.

وفهمت أنا حين قرأت سيرة حياته الشخصية عمق المرارة فى بعض عباراته التى كثيراً ما استوقفتنى حين قرأتها فى شبابى فأدركت لماذا كان يؤمن مع الحكيم سولومون بأننا لا ينبغى أن نعدّ أحداً سعيداً حتى يموت!، وأدركت عمق الأسى فى كلمته الشهيرة:

- «لا يستطيع السعادة إلا المجانين.. ولهذا فإن الجنون هو أثمن هبة إلهية للإنسان بعد هبة الموت!»

وأعدت قراءة «دعاء الجنود» الشهير الذى سخر به أشد السخرية من دمار الحروب ووحشية الإنسان فصاغ دعاء هزليا يتوجه به الجنود إلى ربهم قبل أن ينهضوا لقتل إخوتهم فى البشرية وذكرنى هذا الدعاء الساخر بكلمة ڤولتير القديمة التى يقول فيها إنه حتى اللص فإنه حين يضع المفتاح فى الخزانة ليسرق فإنه يقول: باسم اللّه!

وعلى نفس هذا «المبدأ» يمضى دعاء الجنود عند مارك توين:

ربنا أعنّا على تمزيق جنودهم بقنابلنا شديدة الفتك والتدمير.

وأعنّا ربنا على أن نغطى حقولهم المزهرة بأشلاء قتلاهم الوطنيين!

وأعنّا ربنا على تخريب بيوتهم حتى يهيموا على وجوههم مع أطفالهم الصغار الأبرياء بلا مأوى ولا نصير تلفحهم نار الشمس المحرقة صيفاً وتلسعهم الرياح الثلجية شتاء فيدعونك ربنا أن ترحمهم بالموت فلا تسعفهم به!

ورحمةً بنا نحن عبادك اللهم اعصف بآمالهم وأثقل خطواتهم وارو الطريق بدموعهم السخيفة.. ولطخ الثلج الأبيض بالدماء التى تنزف من أقدامهم الجريحة.

اللهم.. أجب دعاءنا.. ولك المجد إلى أبد الآبدين.. آمين!

نعم.. لقد ضحك كثيراً.. وأضحكنا وأمتعنا أكثر وأكثر.. لكننا لو تفكرنا قليلا فيما ضحكنا له من بعض كتاباته.. لربما ضحكنا أقل وتأملنا الحياة من حولنا أكثر.. وربما بكينا أيضا لبعض ما نراه فيها.

أشيـاء .. لا يفهمونها!

فى قصة أمريكية حديثة انتقلت الابنة الشابة الوحيدة من مدينتها إلى مدينة بعيدة لتلتحق بجامعتها ذات الشهرة الكبيرة، وقدم لها أبوها العامل المكافح كل ما يملك من مدخرات لتبدأ بها حياتها الجديدة، وتحقق حلمها فى الحصول على شهادة جامعية مرموقه لم تسمح له هو ظروفه بالحصول عليها.

وبعد أسابيع قليلة من افتراقها عن أبويها، وممارستها لحياتها الجديدة فى المدينة الكبيرة واجهت محنة أخلاقية مؤسفة حين اعتدى عليها أحد زملائها بالجامعة وقدمت شكوى ضده لإدارة الجامعة مطالبة بمعقابته وحددت الجامعة موعداً للتحقيق فى الواقعة الخطيرة المنسوبة لنجم الكلية الرياضى المرموق بين طلبتها، وعلم الأب المكافح بما تواجهه ابنته الوحيدة من محنة، فاصطحب زوجته وسافر فى رحلة طويلة من مدينته ليكون إلى جوار ابنته فى هذا الموقف العصيب. وتحالفت الظروف المعاكسة على الفتاة الضحية فشهد ضدها كذبًا بعض زملاء الطالب المعتدى، وانتهى الأمر بحفظ الشكوى لعدم ثبوت الجريمة، لكن الفتاة قررت ألا تتنازل عن حقها المسلوب مهما تعرضت له من متاعب، واتجهت إلى القضاء وأقامت دعوى قضائية ضد الشاب المستهتر، واستدعى عميد الكلية والد الفتاة، ليحذره فى لهجة ناعمة

من أن استمرار ابنته فى مقاضاة نجم الكلية الرياضى قد يهددها فى النهاية بحرمانها من الإعفاء الجزئى من رسوم الدراسة الذى تتمتع به، وصارح الأب ابنته بما ينتظرها من متاعب ونصحها بالاستسلام للأمر الواقع لكيلا تضيع فرصتها فى الدراسة الجامعية التى طالما حلمت بها، وانفعلت الفتاة الجريحة، فقالت لأبيها فى حضور أمها: حتى أنت يا أبى تنصحنى بذلك؟ . . وسألها الأب عما يستطيع أن يفعله غير ذلك فى مثل هذا الموقف، فأجابته بغضب: - ساندنى فى موقفى، قف بجوارى ولو مرة واحدة فى حياتك!

واكتست ملامح وجه الأب بالألم حين سمع من ابنته ذلك وأغضى ببصره صامتًا ومرتبكًا.

أما الأم فقد نهضت من مجلسها ببطء واتجهت إلى ابنتها فى ثبات، ثم صفعتها على وجهها صفعة قوية وقالت لها فى حسم:

- إياك أن تخاطبى أباك بمثل هذه اللهجة مرة أخرى؟ أتطلبين منه حقا أن يساندك ولو مرة واحدة فى حياته؟ ومن إذن ساندك طوال حياتك سواه؟ ومن الذى عمل « كالحمار » فى الأعمال الشاقة سنين طوالا لكى يوفر لك ما حرم منه هو من تعليم؟ ومن الذى جاء بك إلى هذه الكلية سواه وسوى وقوفه إلى جوارك وتفضيله لك على نفسه وعلى كل شىء فى الحياة.

وتدخل الأب فى الحوار فقال لزوجته بصوت خفيض: دعيها. . إن الأبناء لا يفهمون مثل هذه الأشياء!

فإذا بالابنة الغاضبة تنفجر فى البكاء شاعرة بالندم الشديد على ما جرحت به مشاعر هذا الأب المكافح، وطلبت منه أن يغفر لها كلماتها الحمقاء، مؤكدة له أنها « تفهم » جيداً قيمة تضحياته من أجلها وتقدرها

له حق قدرها . . لكنها ظروف المحنة الأليمة التى أفقدتها رزانتها واتزانها!

* * *

منذ سنوات كنت فى زيارة صديق قديم كافح طوال حياته ليوفر لابنيه أفضل مستوى ممكن من الحياة الكريمة، وأشرف بنفسه على دراسة ولديه، وطالبهما دائمًا بالتفوق والحصول على أعلى الدرجات لتنفتح أمامهما مجالات الحياة، ولم يخيّب الابنان رجاءه فكانا دائمًا من المتفوقين فى دراستهما، وكانت سعادة الأب بتفوقهما جنونية ثم أنهى الابن الأكبر دراسته بنجاح وتسلم عمله كمهندس بمشروع كبير فى نفس الوقت الذى وهنت فيه صحة الأب، وبدأ يقلل من نشاطه ويقضى ساعات طويلة فى بيته مستسلمًا للراحة والعلاج.

وفى إحدى أزماته الصحية هذه استأذنت فى زيارته، فقادنى ابنه إلى حجرة نومه فوجدته وحيدًا فى فراشه والضجر يكاد يقتله، ورحب بى بحرارة، وراح يسألنى عن أحوالى وأحوال الدنيا التى انقطع عنها منذ وعكته الأخيرة، وكلما هممت بالانصراف لكيلا أرهقه بالزيارة الطويلة ألحّ علىّ بالبقاء معه، لأخفف عنه وحدته وسأمه، وفتح موضوعا جديدًا للحديث لكيلا أجد فرصة للانسحاب، وتنبّهتُ إلى أن ابنه الأكبر الذى قادنى إلى غرفة نوم أبيه قد اختفى بعد لحظات من دخولى على أبيه، ولم يظهر بعدها سوى للحظات أخرى قدم لى خلالها فنجانًا من القهوة ثم تبخّر بعد ذلك من المكان، ولاحظت خلال حديثى مع صديقى المريض أنه يشرئب بعنقه ويميل بجسمه ناحية باب الغرفة، كأنما يحاول أن يتسمّع ما يقال خارجها وسألته فى حرج: هل تريد شيئًا من «الأسرة» هل تحب أن أنادى أحد ابنيك؟

فاعتدل بجسمه راجعًا إلى الوضع الطبيعى فى الفراش وأجابنى بالنفى شاكرًا، ثم حول مجرى الحديث إلى موضوع آخر، وفطنت صامتًا إلى ما يبحث عنه ويفتقده ويتطلع إليه وهو الإيناس العائلى! فالابنان والزوجة مجتمعون حول مائدة فى المطبخ منذ ساعات فيما يبدو يشربون الشاى ويتسامرون، ويتضاحكون ويروى كل منهم للآخر طرائف يومه وأخباره، والأب الذى يتلهف لأن يشارك فى ذلك سجين فراشه وعزلته، ولقد كانوا فى مجلسهم البهيج هذا قبل أن أجىء لزيارته، وعبرت بهم فى سمرهم وأنا فى طريقى إلى حجرة نومه، ثم اختفى الابن الأكبر بعد توصيلى راجعًا إلى الجلسة الممتعة، وظل هكذا طوال زيارتى لأبيه التى طالت رغمًا عنى وتواصلت الجلسة العائلية الممتعة أيضًا بعد انصرافى من زيارته فقد رمقت «جمعهم» فى المطبخ خلال مغادرتى للشقة وبدا لى أنهم لن يفضوها ليلتفوا حول الأب المريض كما يتمنى، ووجدت نفسى بلا سابق إنذار أشعر تجاههم كلهم بأسوأ المشاعر! وتذكرت فى هذه اللحظة أن كل من زاروا صديقى فى ظروفه المرضيه الأخيرة قد لاحظوا كذلك انشغال ابنيه وزوجته عنه بأحاديثهم وجلساتهم وروابطهم العاطفية المتبادلة، وأنه ليس للأب المكافح للأسف مكان بينهم كأنما كانت حياته تجرى فى مجرى مواز لمجرى حياتهم فيتوازى النهران لكنهما لا يتقاطعان ولا يتلامسان إلا فى أضيق الحدود وأكثرها رسمية للأسف!

ولم يكن ما يحتاج إليه منهم بالشىء الكثير . . فقد كان كل ما يسعده هو أن يرجع الابن الأكبر من عمله فيقضى معه بعض الوقت ويحدثه عن نفسه وعمله وحياته وطرائف يومه حديث الصديق إلى صديقه، وليس حديث المستجوَب «بفتح الواو» إلى من يستجوبه وينتزع منه الكلمات بصعوبة ويشدّها من طرف لسانه شدًا!

ولكن متى فهم الأبناء حاجة الآباء والأمهات النفسية إلى هذا العطاء العاطفى البسيط الذى لا يكلفهم شيئًا؟ ومتى عرفوا أن مجرد مبادرتهم بالحديث إليهم وحكاية أخبارهم وشواغلهم لهم إنما تروى ظمأ عاطفيًا لديهم، وتشعرهم بأنهم لا يستبعدونهم من حياتهم واهتماماتهم، ولا ينبذونهم هذا النبذ العاطفى المؤلم، وهم فى أشد الحاجة إلى اقتراب الأبناء منهم وإشعارهم بأن دورهم لم ينته بعد فى حياتهم، ولا يمكن أن ينتهى.

* * *

فى رواية « السكّرية » للأديب العظيم نجيب محفوظ استسلم الأب الذى كانت الأرض من قبل لا تتسع لصولاته وجولاته للمرض، واستقر فى بيته لا يغادره وذهب الأحباب والأصدقاء القدامى إلى مستقرهم الأخير تباعًا وتركوه وحيدًا، فاتخذ الأب من ابنيه الراشدين صديقين وأصبح يتشوّق إلى لقائهما والحديث معهما وتمنّى لو لم يفارقاه، « ولكنها أمنية لا يستطيع أن يعلنها ولن يستطيعا أن يحققاها » أما العالم من بعدهما وبعد زوجته الوفية ورحيل الأحباب ففراغ طويل لا يملؤه شيء، ومن حين لآخر ينتهز فرصة زيارة ابنه الأكبر له فيسأله فى شوق خفى :

– أين تمضى سهراتك؟

وينتهز فرصه « عبور » ابنه الأصغر بغرفته فى المساء عند عودته للبيت فيسأله :

– هل تعجبك هذه الأيام؟

فيبتسم الشاب ابتسامة حائرة ويجيبه لمجرد المجاملة وتداعى الحديث :

– لكل زمان محاسنه ومعايبه!

فيهز الرجل رأسه ويقول « مستمسكا » بهذه الفرصة النادرة للحوار مع ابنه .

– مجرد كلام يقال . . ليس إلا!

ولأنها « أمنية لا تُعلن . . ولو أعلنت لما تحققت » فلن تطول «زيارة» الابن لأبيه مهما طالت عن بضع ساعة، ولن يلبث الأب بعدها أن يعفى ابنه من حرج احتجازه إلى جواره لأكثر مما يحتمل، فينصرف الابن لشأنه وحياته ودنياه وشواغله، ويبقى الأب وحيدًا يناجى أفكاره الحبيسة ويرقب سقف حجرته ويتأمل ألوانه الباهتة وتعاريجه المزخرفة ويكتشف فى كل مرة « شيئًا » لم يلتفت لوجوده من قبل!

* * *

لا . . لن يحدث وأكررها عليك ألف مرة . . لن أسمح لك بذلك أبدًا!

نطقت الابنة الغاضبة بهذه الكلمات الحاسمة وهى تلوّح بيدها فى عصبية شديدة فى وجه أمها، فبكت الأم بالدمع الغزير وتوقعت أن ترق ابنتها لدموعها وتشاركها بدمعة متعاطفة حتى ولو لم تغير رأيها، لكنها لم ترق وتركتها تبكى وحدها بغير أن تندى لها عينها، ثم نهضت فأصلحت من زينتها وحملت حقيبة يدها ترقبا لجرس الباب الوشيك، فما إن دق دقته التقليدية حتى اتجهت إلى الباب وهى تحتشد نفسيا لمقابلة الطارق بالتخلص من عبوسها، ومحاولة رسم بوادر ابتسامة

جديدة على شفتيها، ثم فتحت الباب وقالت بصوت ناعم مختلف تماماً عن الصوت الغاضب الذى كان يزأر منذ قليل فى بهو الشقة:

– أهلاً.. هيا بنا نخرج على الفور لأن «مزاج» ماما ليس اليوم على ما يرام!

ثم تأبطت ذراع خطيبها وأغلقت الباب وراءها واختفت عن عينى الأم الدامعتين غير مدركة «للمفارقة» التلقائية التى صنعها الموقف، وقالت الأم لنفسها فى خواطرها الصامتة:

– شابة وصغيرة وستتزوج بعد أيام.. فكيف تشعر بحاجة امرأة مثلى فى الخمسين من عمرها إلى الرفيق وشريك الحياة؟ وكيف تقدر مشاعر امرأة ترملت فى عنفوان شبابها وكرست حياتها لابنتها حتى غدت شابة جميلة، حين تجىء إلى أمها الفرصة اللائقة لبدء حياة جديدة فلا تنظر للأمر إلا من زاوية واحدة، هى زاوية حرجها أمام خطيبها وأسرته حين ترتبط أمها وتتزوج رجلاً آخر عقب زفاف ابنتها بأسابيع!

* * *

فى اجتماع عائلى خطير دعا إليه الابن الأكبر اجتمع الإخوة الأربعة فى مسكن الأب.

وعرض الأب قضيته فقال إنه منذ إحالته للمعاش قبل عامين وهو يشعر بوحدة قاسية فى مسكنه ويفتقد الأنيس والجليس وشريك الحياة، فإذا كانت أم الأبناء قد رحلت عن الحياة قبل ست سنوات، فلقد كان يجد فى خروجه إلى عمله كل يوم وانشغاله به ما يعوضه عن بعض وحدته وجفاف حياته، أما وقد خلا الآن من كل الشواغل وانشغل كل ابن أو ابنة من الأبناء ببيته وأسرته وأولاده، فلقد اشتدّت به الحاجة إلى

رفيقة للحياة تشاركه وحدته وترعاه فى شيخوخته وهو يترك للأبناء أنفسهم اختيار من يرونها مناسبة لسنّه وظروفه العائلية، ويرجوهم فى هذا المطلب العادل.. فهل يوافقون؟

فيجيبه «الخذلان» من كل الجهات «ويتبارى» الأبناء فى نقض الفكرة وإظهار عيوبها «ومخاطرها» ببلاغة شديدة، ويقول أكثر من واحد منهم أن مكان الأم فى حياتهم لا يجوز أن تشغله امرأة أخرى، وإن أية امرأة جديدة ستدخل أسرتهم لن يكون لها من شاغل سوى ابتزازه واستنزاف ماله وتأليبه على أبنائه والتفرقة بينهم وبينه، وتشاركهم حتى الابنة الوحيدة التى كان يستشعر لديها ببعض العطف والمشاركة فى رأيهم ضد الفكرة، فلا يملك الأب إلا الاستسلام العاجز ويتساءل حين ينصرفون من بيته فى النهاية: ومتى فهم الأبناء السعداء بحياتهم وزوجاتهم وأطفالهم عمق احتياج الأب الأرمل الوحيد، لبعض ما يتمتعون به هم من أنس.. وصحبه.. وارتواء!

* * *

سؤال أخير: هل كل الأبناء كما تصورهم هذه الصور الأدبية والإنسانية؟

والجواب: لا.. لكن هذه الصور قائمة وموجودة فى الحياة كذلك وليست قليلة، وكلها تؤكد الحقيقه الأزلية وهى أنه كما يقول الأبناء دائماً إن هناك أشياء لا يفهمها الآباء والأمهات عن احتياجاتهم ورغباتهم وتطلعاتهم، فهناك كذلك أشياء أكثر وأعمق من احتياجات هؤلاء الآباء والأمهات لا يفهمها أيضاً للأسف الأبناء، وإن فهموها فقد لا يتعاطفون معها، ولو فهموها وقدروها، وتبادل الطرفان الفهم والعطف لاختفت مساحات كبيرة من بحر الشقاء الإنسانى!.

أين كبرياؤك؟

- أحبها ولابد لى أن أتزوجها!

- الحب للبقالين وأصحاب الحوانيت . . وليس للملوك يا مولاى!

تذكرت وأنا أقرأ هذا الكتاب المثير ذلك الحوار القديم بين الملك إدوارد الثامن أكبر أبناء الملك جورج السادس وبين رئيس الوزراء البريطانى بولدوين، خلال احتدام الخلاف بينهما حول رغبة إدوارد فى الزواج من المطلقة الأمريكية مسز سيمبسون قبل تتويجه ملكًا على بريطانيا وإصرار رئيس الوزراء على ألا يسمح له بذلك إلا إذا تنازل عن العرش، مما انتهى به فى النهاية إلى التنازل عن عرشه لشقيقه فى عام ١٩٣٦ والزواج ممن أحبها.

أما الكتاب فاسمه « ذاكرة ملك » وهو حوار طويل بين الملك الحسن الثانى ملك المغرب وبين الصحفى والكاتب الفرنسى « إيريك لوران »، وقد بدأت قصته حين أجرى الكاتب الفرنسى حوارًا صحفيًا مع ملك المغرب فى بداية صيف عام ٩٢ ونشره فى الصحف الفرنسية، وبعده بأسابيع اتصل به أحد المقربين من الملك ودعاه للتوجه لمقابلة الملك فى قصر إيفران بالمغرب للتحدث معه حول مشروع كتاب جديد، وخلال اللقاء أبدى الكاتب الفرنسى تشككه من أن يكون لمثل هذا الكتاب مصداقيته وأهميته، ما لم يتطرق فيه مع الملك بصراحة شديدة

إلى كل القضايا الشائكة والحساسة، فأكد له أنه يستطيع أن يطرح عليه ما يشاء من أسئلة بلا تحفظ، وأنه قد قرأ له ما أصدره من كتب عن حرب الخليج وأعجب بموضوعيتها، ولهذا فقد اختاره لهذه المهمة لأنه يريد محاورًا جديدًا ومحايدًا.

ولحوالى الشهر بعد ذلك التقى الكاتب الفرنسى بالملك المغربى كل يوم تقريبًا فى الثالثة بعد الظهر لمدة ساعتين، وفى العاشرة مساء لمدة ساعتين ليشتبكا معا فى حوار أو فى « مبارزة » عقلية طويلة، تناولت قصة حياة هذا الملك ابتداء من نشأته وتدريبه على القيام بمهام المُلك على يد أبيه الملك محمد الخامس، وحتى قضايا اللحظة الراهنة المحلية والعالمية.

ويعترف الكاتب الفرنسى فى مقدمة كتابه بأنه قد طرح كل ما أراد من أسئلة، وأن أجوبة الملك عليها كانت فى بعض الأحيان لا تقنعه . . لكنها فى أحيان أخرى كانت تنير ذهنه حول أشياء غير متوقعة وتتيح له الوقوف على حقائق لم يكن يتصورها أو يتوقعها. كما يعترف أيضًا بأنه حين عرض عليه نص هذا الحوار الطويل معه بعد إعداده فإنه لم يحذف منه شيئًا. ولست أريد فى هذا المقال أن أعرض هذا الكتاب، لكنى أريد فقط أن أشير إلى ما توقفت أمامه من بعض ما جاء فيه من آراء ومواقف وأحداث، فلأن تكون ملكًا . . فإن ذلك لا يتطلب منك سوى أن تولد لأبوين ملكيين وأن ينتقل إليك العرش بالوراثة.

أما أن تحتفظ بعرشك وسط العواصف والأعاصير فإن ذلك يتطلب منك الكثير والكثير . . ويكلفك أيضًا الكثير . . والكثير، قد يكون منه فى بعض الأحيان أن تسلِّم مع رئيس الوزراء البريطانى المحافظ « بولدوين » بأن الحب للبقالين وليس للملوك! وحقيقة الأمر هى أن

الحب والمشاعر الإنسانية للجميع ومن بينهم الملوك لكن السلطة لها ضرائبها الفادحه أيضًا، وقد تضطر صاحبها لأن يتنازل عما يستمتع به الأشخاص العاديون في حياتهم البسيطة، وقد لا يصمد لها إلا من « تدرب » جيدًا على صناعة المُلك وتحمل مسئولياته.

ومن بين صفحات هذا الكتاب الضخم توقفت أمام بضعة مواقف وحوارات جرت بين الملك الأب محمد الخامس، وبين ولي عهده وابنه الذي خلفه على العرش بعد ذلك، متأملاً كيفية تدريب فتى صغير على أن يصبح ملكًا في المستقبل!

يروى الملك الحسن الثانى في حواره مع الصحفى الفرنسى أن أباه الملك محمد الخامس كان وهو تلميذ صغير لا يعاقبه إذا حصل على صفر من عشرين في مادة من مواد الدراسة لأن ذلك يعنى أنه قد عجز عن استيعاب هذه المادة ويحتاج إلى تقوية خاصة فيها، أما إذا حصل على ٤ أو ٥ درجات من عشرين في نفس المادة فإنه كان يتعرض للضرب بالعصا منه لأن ضعف درجاته يعنى أنه يستطيع استيعاب المادة الدراسية لكنه لم يبذل الجهد الكافي للنجاح فيها، ولأن أباه كان يتقبل أن تكون هناك عثرات في الطريق لكنه لا يتقبل منه ضعف الأداء أو النكوص عن بذل كل ما في الوسع للنجاح.

ويروى أيضًا ما جرى حين خلعت فرنسا السلطان محمد الخامس عن عرشه عام ١٩٥٣ وأخرجته من المغرب ونصّبت بدلاً منه سلطانًا آخر، ففي ذلك اليوم اقتادت السلطات الفرنسية ملك المغرب وأسرته إلى طائرة عسكرية ذات مقاعد خشبية خشنة معدّة لجلوس المظلّيين وقطعت الطائرة الرحلة إلى مدغشقر في سبع ساعات لم يُقَدَّم خلالها للملك وأبنائه أى طعام أو كوب ماء، وظل محمد الخامس جالسًا طوال هذه الساعات في هدوء يمسك بمسبحته وبغير أن ينطق بكلمة واحدة، وحين هبطت الطائرة في الجزيرة اختلف الحال، ووجد السلطان المبعد استقبالاً لائقًا من حاكمها وتشكيلاً عسكريًا صغيرًا يؤدى له التحية، ثم دعا الحاكم ضيفه للعشاء في قصره في نفس المساء، وعلى المائدة جلس الأمير الشاب الحسن الثانى في مواجهه أبيه ويستكمل القصة « قائلاً »: وحيث إننى لم أكن قد تناولت وجبة غداء فقد التهمت كل ما قُدِّم لنا من أطباق، وحين أصبحنا وحدنا في البهو بعد ذلك قال لى والدى غاضبًا:

– أين كبرياؤك؟. وكيف تنقض أنت وأخوك كالغيلان على أطباق الطعام في هذه الظروف؟ إن هذا أمر غريب حقا! فقلت له: سيدى لقد أراد الفرنسيون قتلنا بالجوع في الطائرة.. فهل كنت أموت جوعًا لكى يسعدوا؟».

فحتى الجوع ينبغى أن يتحفظ من يعدّ نفسه لكى يكون ملكًا في إعلان الشعور به، وكذلك الحزن والفرح وباقى المشاعر، والملك الحسن الثانى يروى أنه بعد أن عاش والده فترة المنفى وتغيرت الأحوال السياسية وتنازل السلطان البديل عن العرش ولم يعد هناك مفر من عودة السلطان الشرعى إلى بلاده، فإنه ما إن تقررت عودته إلى بلاده وتهلل الأبناء وتعجلوا العودة حتى ظل الوالد رابط الجأش، هادئًا، وبادرهم بإعلان أنه لن يرجع على الفور إلى بلاده وإنما سيقضى بعض الوقت في فرنسا قبل العودة، ثم دعا ابنيه وقال لهما: لا أريد أن أسمع منكما من الآن فصاعدًا كلمتى.. الحقد.. والانتقام!

فالمسئولون لا ينبغى لهم أن يستسلموا لمشاعر الحقد الشخصية حتى على من تآمروا عليهم أو انقلبوا عليهم وتنكروا لهم! وضرورات الحكم

تفرض على من يتحمل أمانته أن ينحى مشاعره الشخصية جانبًا، وأن يقيّم الأمور بميزان مختلف.

ولأن من يجلس على العرش ينبغى إعداده، لهذه المهمة منذ الصغر فلقد كانت علاقة محمد الخامس بابنه الأكبر أشبه بعلاقه المعلّم الذى يحاول دائمًا أن ينقل إلى تلميذه خبراته وأن يختبر من حين لآخر قدراته وردود أفعاله تجاه بعض المواقف وعن ذلك يقول الملك فى حواره مع الصحفى الفرنسى:

« كان يحب أن أخالفه بلطف.. ولكن دون تجاوز لحدود الاحترام واللياقة »

وهكذا يحب كل أب ملكًا كان أو إنسانًا مغمورًا.. إذا أراد لابنه أن يكون رجلاً قادرًا على مواجهة الحياة، فهذه « المخالفة » الطبيعية فى بعض وجهات النظر وفى حدود الاحترام الواجب من الابن للأب، تنمى فيه ملكة التفكير، والقدرة على التفكير النقدى، واتخاذ القرار.

وهذه الحوارات الطويلة بين الأب وابنه تعمِّق العلاقة بين الطرفين وتزيد من تشابك خيوطهما معا، وتزيد من إعجاب الابن بأبيه، ومن دور الأب فى حياته إلى حد لا يشعر بعمقه إلا حين يجد نفسه فجأه فى مواجهة مسئولياته وحيدًا بعد غياب الأب.

ولابد دائمًا من الاختلاف والتواصل بين شخصيتى الطرفين فلابد أن تتوافق شخصية الابن مع شخصية أبيه فى بعض السمات النفسية والعقلية ولابد أن تختلف عنها أيضًا فى بعض السمات الأخرى.

ومن أمثلة الاختلاف الطبيعى بين الشخصين ما يرويه الابن من أنه قد قال لأبيه ذات يوم:

- سيدى لقد جعلتم من المغرب بلدًا متفتحًا والناس الآن يستمعون إلى الإذاعات ويقرأون الصحف.. ولهذا فيجب أن تتقبلوا أن يختلف معكم بعض الناس.

فوافقه الأب على ذلك، ثم سأله الابن: لنفرض أنكم قررتم غدًا دخول مدينة فى زيارة رسمية وقيل لكم إنه سيجىء لاستقبالكم مليون شخص يهتفون بحياتكم، لكنه إلى جوارهم سيكون هناك عشرة آلاف شخص سيصفرون فى وجهكم استنكارًا ومعارضة.. فهل تذهبون إلى هذه المدينة؟

فأجابه الأب الملك: لن أذهب.. وأنت ماذا تفعل؟ فأجاب الابن: أما أنا فسأذهب!

وفكر الأب مليا فى إجابة ابنه ثم قال له مسلمًا بحقائق الحياة:

- هذا هو الفرق بين تكوينى.. وبين تكوينك.

ثم بعد لحظة تأمل واصل الكلام قائلاً: لقد انتهت مهمتى واقتربت ساعتك.. ولأجل ذلك قد أعددتك لهذه المهمة! فلم يملك الابن إلا أن يقول لأبيه:

- مع كل ما أكنّه لكم من احترام يا مولاى.. فإنى لا أرغب فى أن أسمع منكم هذا الكلام مرة أخرى.. وإلا فسأنسحب!

ومهما يكن حجم الاتفاق والاختلاف بين شخصيتى الأب والابن، فإن الابن يشعر دائمًا بأنه يتمتع بمظلة وجود الأب فى حياته، وأن هذه المظلة تحميه من صواعق السماء وتتيح له حتى حق الاختلاف مع الأب، أما حين ترتفع عنه هذه المظلة ويجد نفسه تحت حرارة لهب

الشمس المباشرة فإن أشياء كثيرة فى حياته وشخصيته قد تختلف عنها قبل رحيل الأب!

يروى الحسن الثانى فى حواره مع الصحف الفرنسى أنه حين مات والده إثر عملية جراحية بسيطة فى الأذن، وجد نفسه مشغولاً بإصدار التعليمات الأولية بشأن مراسم الجنازة والوداع الرسمى للملك الأب إلى حد أنه لم يجد الوقت لكى يبكى أباه كما كان يريد.

«وبينما أنا سائر وراء نعشه قلت لمن كان حولى إنكم تسيرون وراء جثمان شخص واحد، أما أنا فإنى أدفن والدى.. وأدفن معه فى نفس الوقت ولى العهد الذى كنتُه!»

لقد انطوت صفحة من حياته هى صفحة ولى العهد الشاب الذى يعيش حياته، ويتعلم إلى جوار ذلك من أبيه ويتدرب على تحمل مسئوليات الملك، وبدأت صفحة جديدة أخرى هى صفحة الملك الذى ارتفعت عن رأسه مظلة الأب ولم يعد هناك من يحميه من صواعق السماء سوى عقله وحنكته وقدرته على تقييم الأمور وتفادى الأشواك والعثرات.

وحين يسأله الصحفى الفرنسى بعد ٣٢ عاما من تولى الملك «وقت إجراء الحوار» عما إذا كان قد مر فى حياته بمواقف ولحظات تمنى خلالها لو كان قد استطاع أن يستشير فيها أباه، فيجيبه بالإيجاب ويقول له: «تمنيت كثيراً لو أسمعه يقول لى كما كان يفعل فى السابق: ما هذا الغباء؟ فالإنسان يشعر بالحرمان حين لا يجد ذلك الإنسان الذى يستطيع أن يأتمنه على أسراره.. وحين لا يجد اليد التى يقبِّلها تعبيراً عن حبه لصاحبها وامتنانه له ومهما تكن الصلة بينك وبين ساعدك الأيمن ولداً كان أو أخًا فعليك وحدك أن تتخذ القرار.. ومواجهة الطوارىء والعواقب والمضاعفات التى تترتب على قرارك واختياراتك وهى عواقب جسيمة دائما، ومهما كانت عناصر صناعة القرار موضوعة أمامك فلسوف تتردد قبل الإقدام على اتخاذه وما زال الأمر كذلك بعد أكثر من ثلاثين عامًا من ممارسة مسئوليات الحكم ولم أفتأ إلى اليوم أسأل نفسى نفس السؤال فى مواقف اتخاذ القرارات الصعبة: ترى ماذا كان أبى فاعلاً فى هذا الموقف؟ ولم أسأل نفسى قط: كيف كان سيفعل؟ لأنى أؤمن بما يقوله بوفون من أن: الرجل هو الأسلوب، ولابد أن يختلف الأسلوب من شخص لآخر، ومن الخطأ الفادح أن يريد الإنسان أن يكون نسخة مكررة من أصل سابق.

ولأن القمم باردة دائما فلسوف يشعر من يقيم فوقها غالبًا بشىء من العزلة والوحدة والوحشة، وفى كواليس السلطة سوف يكون هناك دائمًا.. الوفاء.. والجحود، والإخلاص والخيانة، والتضحية، والأنانية.. وباقى صور النفس البشرية فى قوتها وضعفها واعتدالها وجموحها، ولقد واجه الحسن الثانى محاولتين انقلابيتين ضده كشفت كل منهما له عن وجه آخر من وجوه السلطه وأجواء القمة، ففى عام ١٩٧١، اقتحم ١٢٠٠ طالب من طلاب الكلية العسكرية قصر الصخيرات خلال حفل استقبال يقيمه الملك وبدأوا فى إطلاق النار على المدعوين، فتوجه الملك مع بعض المقربين إلى جانب آخر من جوانب القصر.. وبعد قليل فتح الجنود الباب ودخل أحد الطلاب وأخذه جانبًا وهو شاهر بندقيته فى وجهه ثم فجأة توقف وانتابه الذعر وقال له: أنتم.. أنتم.. لم أتعرف عليكم «فأجبته على الفور: الآن وقد تعرفّت علىّ.. فلتؤدِ التحية العسكرية.. أين زملاؤك؟ فأجاب أنهم هناك لكن

يجب أن نختبىء لأن كثيرين قد يطلقون علينا النار، فطلبت منه أن يحضر ثلاثة أو أربعة من زملائه وخاطبتهم قائلاً: لنبدأ الآن بتلاوة الفاتحه جهراً، وحينئذ نهض المدعون الذين كانوا منبطحين على الأرض وبدأ الطلاب الآخرون ينضمون إلينا وهم يهتفون: عاش الملك، لقد حمونى ولهذا السبب أفرجت عنهم جميعًا فيما بعد».

وكانت هذه هى مؤامرة الجنرال المذبوح والجنرال عبابو ضده فى عام ١٩٧١، واستمرت ١٢ ساعة تم خلالها الاستيلاء على الإذاعة وإعلان الجمهورية، أما المؤامرة الثانية فكانت مؤامرة الجنرال أوفقير وزير الدفاع وأقرب مساعديه إليه ووقعت فى العام التالى خلال عودة الملك من فرنسا، حين صعدت إلى طائرته فى الجو خمس مقاتلات مغربية وبدأت فى إطلاق النار عليها، فأصابتها فى بعض أجزائها وتعطلت كل محركاتها وشبت النار فى المحرك الاحتياطى الأخير فطلب الطيار إذن الملك له بأن يُقدم كما قال له على « أكبر خطأ يمكن أن يرتكبه طيار فى حياته » وهو تشغيل هذا المحرك الذى تشتعل فيه النار، ولم يكن هناك من أمل آخر للنجاة سوى ذلك، فأذن له وهبطت الطائرة بمحركها المشتعل للمطار ونزل منها الملك من باب الطوارىء، وست طائرات أخرى تقترب من المطار لدكه بالقنابل على رؤوس من فيه، واستعار الملك سيارة أحد موظفى المطار وقادها بنفسه إلى قصر الصخيرات فكان أول ما فعله هو أن قفز إلى حمام السباحة ليستعيد هدوء نفسه وتركيز تفكيره، وانتحر مدبّر المؤامرة الجنرال أوفقير بعد قليل.

فهل كان ذلك وغيره مما خبره الرجل بحكم تجربته الطويلة فى الحكم هو سر ما قاله للصحفى الفرنسى من أنه:

- من الصعوبه بمكان أن تكون صديقا لملك.

وأن السلطة كالرحى الدائرة إذا اقتربت منها برفق صقلتك وإذا اشتد قُربك منها جرحتك وآذتك؟

قد يكون هذا أوغيره هو السبب.

لكن المؤكد أيضًا أنه إذا كان من الصعوبة بمكان أن تكون صديقًا لملك أو حاكم أو واحد من أهل قمم السلطة الباردة. فمن الأصعب أن تكون ملكا أو مسئولاً كبيراً بلا صديق.. ولا صداقة.. ولا صحبة مخلصة مجردة من كل الأهواء!

.. لكنها مسألة وقت!

أخيراً عثرت على بيت صديقى العبقرى الذى فشلت مرتين من قبل فى الاهتداء إليه . شىء يثير الضيق أن تعجز عن زيارة صديق تريد زيارته مع أنك تحمل عنوانه واضحا فى يدك . . ولا تجد من يشفى غليلك ويرشدك إليه . ذهبت مرتين من قبل إلى نفس الشارع ، بين كل مرة وأخرى عام كامل ، ورجعت بخفى « حنين » الذى نعذبه فى أمثالنا العربية بالإشارة إليه دائما كرمز للفشل وخيبة الرجاء! فى محاولتى الثالثة والأخيرة . . فهمت سر فشلى فى الاهتداء للبيت فى المرتين السابقتين . . فالشارع منحدر يهبط من ربوة عالية إلى مستوى الأرض . . والبيت الذى أبحث عنه لا يقع فى الشارع فى حقيقة الأمر ، وإنما يقع تحته ، وتحتاج لأن تهبط إليه إلى استخدام سلم حديدى طويل . . وهكذا فقد عبرت هذا السلم فى المرتين بغير أن يستلفت نظرى ، ثم لمحته فى زيارتى الأخيرة . . وتهللت لاكتشافى سره وأسرعت بنزول درجاته العشرين فوجدتنى فى حديقة البيت الصغير الذى أبحث عنه . إنه بيت الروائى الفرنسى العبقرى أونوريه دى بلزاك بشارع أو « تحت » شارع « رينوار » فى باريس! أما هوايتى فى البحث عن بيوت الأدباء والمفكرين فى الدول التى أزورها واسترجاع صور أصحابها وهم يثرون الحياة بإبداعهم فيها ، فلقد حدثتك عنها من قبل ، وأما فرحتى بالعثور عليه فلقد أنستنى برودة الجو القارس فى باريس خلال شهر ديسمبر . .

وقطرات المطر التى بللت ملابسى وأنا أتجول فى الشارع ذهابا وإيابا بحثا عنه ، فاتجهت إليه وأنا أنفض المطر عن ملابسى ، مطمئنا إلى أننى سأفوز فيه بخلوة هادئة لمدة ساعتين . . إذ ليس من المتوقع أن يزوره أحد فى مثل هذا الجو العاصف ، ففوجئت حين دخلت إليه بأن سحر بلزاك أقوى من المطر والبرد ، ورأيت مجموعة من ١٥ سيدة فوق الستين وربما السبعين من العمر يتوسطهن مرشد يشرح لهن ما يرين من لوحات . . ومخطوطات . . وتماثيل ، كما رأيت أيضا فتاة صغيرة لايزيد عمرها على العشرين ، يبدو من مظهرها أنها طالبة جامعية ، تتجول وحيدة بين غرف البيت ومحتوياته ، فابتسمت فى باطنى للمفارقة بين ما توقعت وما رأيت وتذكرت آراء صديقى العبقرى فى المرأة وإيمانه بأن المرأة متوسطة العمر أفضل للرجل من الفتاة الصغيرة ، وأكثر عطاء وإخلاصا لأن « المرأة التى فى الأربعين من عمرها تعطيك كل شىء ، أما الفتاة التى فى العشرين فإنها تأخذ منك كل ما معك ولا تعطيك شيئا ! » وتخيلته يحتفى بزيارة هؤلاء السيدات العجائز له وهو يرتدى بدلته المميزة من القطيفة الحمراء ويضع على رأسه قلنسوة الرهبان التى يرتديها حين يجلس للكتابة إشارة إلى أن الأدب يحتاج إلى رهبنة وتفرغ تام للإبداع ، وتخيلته أيضا يرمق هذه الفتاة الصغيرة التى تزور بيته بعد ١٤٦ عاما من رحيله عن الحياة ، فى ريبة وحذر من أن تأخذ منه كل شىء ولا تعطيه شيئا!

ولأن للعباقرة أحيانا بعض آرائهم الجامحة ، فلسنا نملك فى النهاية إلا تأملها والتجاوز عنها ، لكنه كانت لصديقى العبقرى على أية حال من ظروف نشأته ما دفعه للإعجاب بالمرأة متوسطة العمر . . والشك فى الفتيات الصغيرات . فلقد كره صورة « الفتاة الصغيرة » واتهمها فى خياله . . تأثراً بمشاعره السلبية تجاه أمه التى تزوجت أباه تحت ضغط

أسرتها الفقيرة، وهى فى التاسعة عشرة من عمرها وهو فى الواحدة والخمسين، فعاشت حياتها معه ساخطة وكارهة وشديدة العصبية والقسوة، وكان من سوء حظ صديقى أن جاء للدنيا من أم جميلة بشكل لافت للنظر لكنها تكره حياتها الزوجية مع أبيه وتأخذ طفلها بالقسوة الشديدة لغير مبرر واضح أو ربما لأنه رمز لارتباطها بأبيه الذى أجبرت على الزواج منه، فلا عجب إذن أن عاش طفولة قاسية قال عنها هو نفسه فيما بعد: إنها أسوأ طفولة يمكن أن يعيشها إنسان. . ولا غرابة فى أن يقول بل وأن يكتب أيضا: إن أمى تكرهنى حتى من قبل مولدى وهى السبب فى كل ما حل بى من مآسى الحياة!

وعلى حين أراد هو أن يصبح أديبا يحقق بقلمه ما حققه نابليون بسيفه كما قال، رغبت أمه فى أن يدرس القانون ويصبح محاميا أو وكيلا للنيابة، فدرس القانون على غير إرادته، وواصل الحلم بأن يصبح ذات يوم أديبا عظيما رغم كل شىء حتى رضخت الأسرة لرغبته فى النهاية على كره منها. . وتركته ينتقل من بيت الأسرة بمقاطعة اللورين إلى باريس ليبدأ كفاحه فيها. وفى المدينة الصاخبة عاش حياة قاسية وقبضت أمه يدها عنه لكى تجعل حياته فى باريس مستحيلة وترغمه على العودة، ولم تحقق كتاباته الأولى نجاحا يذكر. . ولم تقدم له أى دخل يعينه على تلبية مطالبه، فتحمل عناء حياته بجلد شديد بعض الوقت إلى أن خارت قواه وقرر الانتحار، وقبل أن ينفذ قراره التقى بسيدة عطوف اسمها مدام دى برنى كانت فى مثل سن أمه فى ذلك الوقت أى فى الخامسة والأربعين، وكان هو فى الثالثة والعشرين، فعطفت عليه وشجعته على التمسك بالحياة، فلم يلبث أن عدل عن قراره مؤكدا لها ولنفسه أن عبقريته كفيلة بأن تنقذه فى النهاية من كل متاعب حياته. . « لكنها مسألة وقت فقط ليس إلا!»

وبإرادة من حديد راح صديقى العبقرى يكتب وينشر ويحلم بالمجد الأدبى والثراء، ودفعه حلمه بالثراء إلى التورط فى بعض المشروعات التجارية التى باءت كلها بالفشل وكبدته الديون الطائلة، ومع ذلك فلم يفقد إيمانه أبدا بعبقريته الأدبية ولا بقدرته على تحقيق آماله فى النهاية. . لأنها « مسألة وقت » كما قال لنفسه من قبل، فرجع إلى الكتابة باندفاع محموم وراح يصحو من نومه فى الثانية صباحا كل يوم ويجلس إلى مكتبه ويكتب بلا توقف ولا راحة ١٤ ساعة متواصلة على الأقل مستعينا بفناجين القهوة السوداء التى أسرف فى احتسائها على مغالبة النوم، فكتب ٧٠ رواية وعدداً لا يحصى من القصص القصيرة والمقالات الأدبية، وكان يكتب الرواية أحيانا فى ستة أسابيع. . فيتعجب النقاد لعمقها الإنسانى وقيمتها الفنية والفكرية العالية وكتب فى بعض الفترات ٥ روايات فى السنة الواحدة، ولم يحرم نفسه - بالرغم من ذلك - من الظهور من حين لآخر فى صالونات باريس الأدبية ومجتمعاتها المخملية ولكن فى حدود محسوبة، وبالقدر الذى يتطلبه فقط « السماح للآخرين بالاستمتاع بعبقريتى والانبهار بها ». وبالفعل فلقد كان رواد هذه المجالس ينبهرون بسحر شخصية بلزاك، وحديثه الممتع، وثقافته العميقة، وسخريته اللاذعة المهذبة. . فإذا تحدث - كما قال أحد النقاد المعاصرين « صمت الآخرون ليسمعوا بلزاك وهو ينتقل بهم كالمأخوذين من موضوع إلى موضوع. . ومن الأدب إلى الفلسفة. . إلى الجغرافيا. . إلى المرأة والحب والزواج. . ثم ينهض فجأة للانصراف معتذرا عن ذلك بأن هناك « أفكارا عبقرية » يريد أن يسجلها على الورق، ويحفظها للإنسانية من بعده!».

ثم عرف الأديب العبقرى بعد سنوات الكفاح الطويلة النجاح والشهرة وبعض الثراء. . فعاش فى بيت مستقل له حديقة، واسعة هى هذه

الحديقة التى رأيتها قبل دخول البيت ولفت نظرى فيها وجود تمثالين صغيرين لأبى الهول كأنما كانا يحرسان العبقرى وهو يشرب قهوة الصباح بالحديقة، كما عرف الأثاث الفاخر . . وحجرة المكتب المستقلة التى رأيت فيها مكتبه ومقعده وعلى المكتب بروفة مطبعية لإحدى صفحات كتبه تحمل تصحيحات الأديب اللغوية لها بخط يده . . كما عرف أيضا السيدة متوسطة العمر التى قدر له أن تكون آخر قصة حب فى حياته، وكانت سيدة بولندية أرستقراطية تافهة العقل تصغره بخمس سنوات أسمها إيفلين هانسكا أو الكونتيسة هانسكا، وقد تعرفت على بلزاك من قراءة رواياته وهى تعيش مع زوجها فى بلدها والتقت به لأول مرة عام ١٨٣٣، وتكرر اللقاء بينهما على فترات متقطعة فوقع بلزاك فى هواها، وكتب إليها عددا كبيرا من الرسائل التى أرّخت لجانب مهم من جوانب حياته الشخصية على مدى أكثر من ١٥ عاما، وكتب إليها ذات مرة: « أن أكتب إليك فهذا يعنى العودة مرة أخرى إلى جنة الذكريات، وجحيم الآمال المؤجلة! » وكتب إليها فى مرة أخرى: « أنت تمثلين بالنسبة لى دمارى، وأحلام يقظتى السعيدة، وحيرة روحى المتخبطة! ».

وخلال ذلك كان بلزاك قد بدأ إصدار أهم أعماله: « الكوميديا الإنسانية » وهى مجموعة روايات وقصص قصيرة، صور فيها المجتمع الفرنسى بكل فئاته تصويرا صادقا وساحرا وراح يواصل الكتابة بلا انقطاع وتصحيح البروفات واحتساء القهوة السوداء بإسراف شديد ثم مات زوج الكونتيسة، وتصور الأديب أن آماله المؤجلة قد حان وقت تحقيقها . . لكن الكونتيسة اللعوب راوغته طويلا ورفضت الزواج منه مؤثرة حياة الانطلاق والجرى وراء أهوائها وظلت على مراوغاتها له إلى أن تأكدت من أنه مريض ولن يطول به البقاء فتزوجته فى عام ١٨٥٠،

وانتقلت إلى هذا البيت الذى زارته أخيرا، فلم يمض عليها به سوى ٥ شهور فقط حتى مات الأديب العبقرى وهو فى الواحدة والخمسين، وقبل أن يستمتع بآماله « المؤجلة » التى تحققت له أخيرا . . وبعد أن أشعل شمعة حياته من طرفيها فذابت سريعا، وصدقت عليه كلمة أحد العرب عن الشاعر العربى أبى تمام الذى مات دون الأربعين « إن عقله يأكل جسمه » فمن عجب أن كانت هذه الكونتيسة الشمطاء غير أمينة على من أحبها بإخلاص وانتظرها بصبر ١٥ عاما فكانت تخونه وهو فى مرض موته، ولا عجب فى أن أشعر تجاهها بطوفان من الكراهية والاحتقار، وأنا أتأمل لوحة زيتية تحمل صورتها فى بيت صديقى العبقرى، فلا أتوقف أمامها إلا للحظات وأبتعد سريعا عنها لأتوقف أمام صورة صديقى المحبوب . وتمثاله! وهكذا فلو لم يكن لى من رحلتى لباريس فى الشهر الماضى إلا « نجاحى » هذه المرة فى زيارة هذا « الصديق » فى بيته لتقديم تحية الحب والاحترام والإمتنان لواحد ممن أثروا فى وجدانى وأهدوا للإنسانية ثمرة إبداعهم لكفانى ذلك، لكن خاتمة الرحلة قد أضافت إلى ذكرياتها أيضا مفاجأة جديدة، فلقد دخلت الطائرة عائدا للقاهرة ونهض من يجلس بجوار مقعدى ليتيح لى فرصة الدخول إليه، والتفت ناحيته لأشكره فإذا به الفنان « الجميل » عقلا وروحا وفنا . . الأستاذ جميل راتب!

وخلال رحلة العودة تجاذبنا أطراف الحديث طويلا وسألته خلال الحديث سؤالا عابرا عن أسرته أى زوجته وأولاده . . أهم يقيمون إقامة دائمة فى باريس، أم فى القاهرة، لأنى أعرف أنه عاش زهرة عمره فى باريس وعمل فى شبابه بفرقة الكوميدى فرنسيز العريقة سنوات طويلة قبل استقراره بمصر، ففاجأنى بأن قال لى ببساطة: لا أسرة لى فى الحقيقة . . فأنا لم أنجب أولادا وزوجتى الفرنسية تقيم بمسكننا القديم

فى باريس ، وأنا أقيم إقامة دائمة بالقاهرة وأتردد على باريس من حين لآخر وقد تعبت من هذا التنقل . . ومن العمل بصفة دائمة ، وأفكر فى الاعتزال والعودة للاستقرار فى باريس لأقضى بها ما بقى من العمر! وانزعجت للفكرة على الفور ووجدتنى أجيبه بتلقائية : وما ذنبنا نحن لكى تحرمنا من فنك الجميل الراقى؟

فقال فى هدوء : لاذنب لأحد لكنى رجل عمرى سبعون سنة وعملت ما فيه الكفاية ولم أعد أستطيع أن أعمل ليل نهار ، كما كان حالى فى السنوات الماضية ، خاصة وأنى أعيش وحيدا بالقاهرة!

وأجبته بأنه لا يعيش وحيدا فى الحقيقة لأن عائلته الكبيرة ، وهى من عائلات مصر العريقة تقيم فى الجوار . . ولأن محبيه كثيرون أيضا!

فابتسم قائلا إن أسرته التى قاطعته حين احترف الفن فى بداية شبابه ، قد رجعت العلاقات بينه وبينها إلى ما يرام ، لكن المشكلة هى أنه كان قد استغرق فى عالم الفن حتى أصبحت أسرة الفن والفنانين هى عائلته التى يعايشها ليل نهار ، ويتعامل معها كل لحظة وقد أوقعه هذا الاستغراق فى عالم الفن فى خطأ محرج فمنذ فترة قصيرة اتصلت به شقيقته لتبلغه خبرا عائليا مهما ، فقالت له : إن « فيفى » قد دخلت المستشفى ، ومن واجبه أن يزورها ويطمئن عليها .

فسألها بعفوية : فيفى عبده؟

فأجابته فى غيظ : فيفى راتب . . يا فنان!

ونطق الكلمة الأخيرة وهو يجز على أسنانه بطريقته المميزة فى الأداء يافنااااان!

فضحكت طويلا ورجوت له صادقا الصحة واستمرار العطاء للنهاية ، لأن المبدع - كما قلت له - إنما يعمل فى بداية حياته لإثبات ذاته مؤمنا كبلزاك بأن موهبته كفيلة بأن تحقق له النجاح ، لكنها فقط مسألة وقت وكفاح ويعمل فى منتصف العمر للمحافظة على النجاح وعلى رصيده لدى الناس ، ثم يستمر فى العمل بعد ذلك لغير سبب سوى لأن هؤلاء « الناس » قد أحبوه ويريدون منه الاستمرار إلى النهاية وليس من حقه أن يخذلهم أو يبخل عليهم بعطائه ، وهز الفنان الكبير رأسه متفكرا . . وهبطت الطائرة أخيرا للقاهرة . . وغادرتها محملا بذكريات صديقى العبقرى الفرنسى الذى « غرق فى فنجان قهوة » كما قال عنه النقاد ، وأيضا بذكرى لقاء الصدفة الممتع مع ذلك الفنان المصرى الكبير الذى استغرق فى عالم الفن حتى كاد ينسى كل ماسواه!

أعط غيرى!

هل تذكر شخصية « فورست جامب » فى ذلك الفيلم الجميل الذى يحمل اسمه؟ إنه كما تعرف شاب محدود القدرات العقلية وبطىء الفهم، وقد كافحت أمه التى أحبته من قلبها لإلحاقه بالمدارس العامة وليس بمدارس التربية الفكرية الخاصة لكيلا يشعر بالنقص تجاه زملائه، فواصل دراسته بصعوبة شديدة، وصمد لسخرية التلاميذ الأشقياء منه لأنه يستخدم جهازا لتقويم الساقين خلال المشى، ولاحقه الصغار ذات مرة بالدراجات وهو يسير مع التلميذة الوحيدة التى تعاطفت معه فصرخت فيه الطفلة أن يجرى لينجو من إيذائهم فراح يحجل بالجهاز مبتعدا عنهم، ونظر وراءه فوجد الشياطين الصغار يقتربون منه فتملكه الرعب، فإذا به يجرى بقوة الخوف الشديد وحده، لا يعرف كيف، وإذا بالجهاز يتحطم عن ساقيه وهو يجرى كالسهم عائدا إلى البيت ويتخلص منذ ذلك اليوم من جهاز الساقين، ولم يكن من قبل يستطيع المشى بدونه!

وفى المدرسة الثانوية تتكرر معه نفس القصة بتفاصيلها ويلاحقه زملاؤه العابثون بسيارة لينالوا منه وهو يسير مع زميلة طفولته نفسها.. فتهتف به مرة أخرى أن يجرى، لينجو منهم، فيجرى كالسهم وكلما التفت خلفه ورأى السيارة تقترب منه ضاعف من سرعته بقوة عجيبة فإذا

به يقتحم من حيث لا يدرى أرضا تجرى عليها مباراة تدريبية فى البيسبول.. وإذا به يقطع الملعب كالصاروخ المنطلق فيسبق كل اللاعبين وسط ذهول الجميع، ويهتف المدرب لمن حوله: أريد هذا الشاب!، ولا يأبه باعتراضات مساعديه بأنه لا يعرف شيئا عن اللعبة أو بأنه شاب بطىء الفهم وليس ذكيا، ويضمه للفريق بالفعل، ولا يطلب منه سوى أن يجرى بسرعته الفائقة هذه كلما تسلم الكرة فيصبح الشاب بعد قليل نجما فى لعبة رياضية لم يحلم يوما بممارستها.. وتتخاطفه الجامعات وتغريه على الالتحاق بها بتقديم المنح الدراسية له لكى يلعب لفريقها، وينضم إلى منتخب الجامعات على مستوى الدولة، ويحظى بمقابلة رئيس الجمهورية مع أعضاء الفريق، ويذهل كل من يعرفونه لما حققه لنفسه من نجاح، وقد توقع له الجميع دائما الفشل والخمول!

ثم يؤدى الخدمة العسكرية ويشارك فى القتال فى فيتنام، وتتعرض وحدته العسكرية لكمين وسط الأحراش وتنهال عليها القذائف، وينجو هو بسرعته الفائقة فى الجرى من الخطر ويرجع إلى الأمان مع من رجعوا.. لكن أين صديقه الأسود الطيب الذى كان الوحيد من بين جنود الوحدة الذى رحب بصداقته، وتحدث معه عن أحلامه فى أن يعمل بعد الحرب فى صيد الجمبرى، وعرض عليه أن يعمل معه فلم يجد مانعا من القبول.. نعم أين هذا الصديق؟.. إنه مازال فى منطقة الخطر وسط الأحراش ولابد من العودة إليه لإنقاذه، ويرجع الشاب محدود التفكير إلى الغابة ولو كان من أهل الذكاء لما رجع فيستنجد به جريح آخر أن يحمله بعيدا عن الخطر فلا يردُّ نداءه حتى ولو كان من الساخرين منه من قبل، ويرجع لإنقاذ صديقه من جديد فيسمع استغاثة جندى آخر وينقذه، ويكرر العملية فينقذ بذلك خمسة من الجرحى من بينهم قائد الوحدة، ويرجع فى النهاية حاملا صديقه الذى يلفظ أنفاسه بين ذراعيه، ويفاجأ

وهو فى المستشفى يعالج من جراحه باثنين من كبار الضباط يقفان أمام فراشه ويقدمان إليه نوط الشجاعة ! . . ويستدعى بعد تماثله للشفاء إلى العاصمة فيقابل رئيس الجمهورية مع أصحاب البطولات فى الحرب !

ويسأل نفسه بعد انتهاء خدمته العسكرية ماذا يفعل بحياته الآن . . فيتذكر صديقه الأسود وحلمه القديم شراء سفينة صغيرة لصيد الجمبرى . . ويقرر وفاء له أن يحقق الحلم ويشترى بمكافأته سفينة . يسجل نصفها باسم أسرة هذا الصديق الراحل ويمارس الصيد بلا أية خبرة سابقة فلا يجنى إلا الخسائر . . ولأنه ليس من أهل الذكاء فإنه لا يتخلى عن المشروع الفاشل ، وإنما يواصل العمل فيه لأنه لا يعرف لنفسه عملا سواه ، فإذا بقائده السابق الذى أصبح الآن مبتور الساقين ينضم إليه فى العمل ، ويتخبطان بعض الوقت فى عثرات البداية وعقبات نقص الخبرة ثم يخرجان إلى البحر ذات يوم وتهب عاصفة قوية فترجع السفن كلها إلى المرفأ الآمن ، أما سفينتهما فإنها تبقى فى البحر لأن القائد العسكرى السابق تتملكه رغبة قوية فى الانتحار والتخلص من حياته ، ولأن الشاب الطيب لا يسمح له ذكاؤه بتقدير الخطر الكبير الذى يتهدد السفينة ، فإذا بهذه المغامرة الانتحارية التى لم يفهم الشاب دوافعها لدى شريكه تكون بداية الخير لمشروعهما الفاشل ، وإذا بهذه السفينة تصمد للعاصفة وتصيد كل ما كان مقدرا لغيرها من السفن أن تصيده من الجمبرى ، وتتحقق الأرباح لأول مرة ثم تتواصل . . ثم تصبح السفينة الواحدة سفينتين ثم « ثلاثا » ثم «أربعا» . . ثم أسطولا صغيرا من سفن الصيد يديره ذلك القائد الجريح الذى استرد الآن رغبته فى الحياة ويتحول الشاب الطيب إلى مليونير يعيش فى بيته فى أمان وسلام . هذه هى قصة « فورست جامب » بعد اختصار كثير من تفاصيلها . . وقد أراد مؤلفها أن يقول لنا بها شيئين هامين : الأول أن استشعار الخطر الشديد

قد يطلق فى الإنسان قوة داخلية فى أعماقه تدفعه لكى ينجو من الخطر إلى القيام بأعمال لم يكن يشعر من قبل بقدرته على إنجازها ، والثانى أن النجاح فى الحياة ليس مقصورا - كما يظن البعض - على الأذكياء وأصحاب العقول والعبقرية وحدهم ، فمن أصحاب القلوب الطيبة والنية السليمة أيضا من لا تحرمهم الحياة كذلك من التوفيق والنجاح حتى وإن جهلوا هم أنفسهم أسباب هذا التوفيق .

وكل ذلك صحيح . . ولعلى أضيف إليه خاطرا آخر أكثر أهمية قد لا يكون قد جال بذهن مؤلف القصة نفسه لأنه خاطر إيمانى يبدو غير مألوف فى بعض الأحيان بالنسبة للعقلية الغربية المادية فى مجملها ، وهو أن قصة فورست وقصص أمثاله مع الحياة ، إنما تقدم لنا الدليل المتجدد كل يوم على صدق الوعد الإلهى الذى قطعه الله سبحانه وتعالى على ذاته العلية فى الحديث القدسى الذى يقول ما معناه : وعزتى وجلالى . . لأرزقن من لا حيلة له حتى يتعجب أصحاب الحيل !

أما لماذا أراد الله بحكمته التى تجل عن الأفهام أن يتعجب أصحاب الحيل أمام مثل هذه النماذج البشرية التى لا ترشحها قدراتها العقلية لإحراز أى نجاح أو تفوق فى الحياة ، فلكى يتذكر الجميع فى غمار صراعهم وطموحهم الضارى . . وتقاتلهم للفوز بفرص النجاح ، أن الله سبحانه وتعالى وحده هو من « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » وليس أحدا سواه . . فإن لم يتذكروا ذلك ويعترفوا به ويشكروا خالقهم عليه . . وانساقوا وراء غرورهم البشرى وتصوروا أنهم قد حققوا ما حققوه « بعبقريتهم » وحدها . . أو « على علم عندى » كما قال قارون ذات يوم معتزا بماله وناسيا فضل الله عليه حتى خسف به الأرض ، إذا حدث ذلك فقد تتكرر فى الحياة قصة أمثال فورست جامب لكى يتذكر الجميع قدرته

سبحانه وتعالى، ويعترفوا له ولأنفسهم بأنه الواهب وحده سبحانه وليس أحدا سواه، وأنه ليس لديهم ما يبرر لهم غرورهم واعتزازهم بعبقريتهم ونبوغهم . . « لأن الفضل لمن منحك وليس لمن مدحك » كما يقول ابن عطاء الله السكندرى فى الحكم العطائية . . ، فإن لم تصدقنى فى ذلك فلسوف أروى لك قصة فورست المصرى التى عرفت طرفا منها عن قرب . . وهى قصة تتكرر كثيرا فى الحياة ويجمع بين شخصياتها الواقعية وليس الدرامية كشخصية فورست الأمريكى سمات مشتركة هى أن أصحابها يشتركون غالبا فى قدرتهم العقلية المحدودة التى لا تؤهلهم لولا إرادة الله للنجاح والثراء، وأيضا فى سلامة طويتهم وطيبة قلوبهم وحسن ظنهم بالله، وبالناس كذلك ولو كان ذلك مخالفا لحرص الأذكياء على التشكك غالبا فى الآخرين!

أما فورست المصرى . . فلقد كان شابا طيب القلب حسن النية يسخر من سذاجته وضعف تفكيره زملاؤه بالمدرسة الثانوية بإحدى مدن الأقاليم الصغيرة ويعابثونه فلا يضيق بمعابثاتهم ولا يشكو منها، حتى أشفق عليه أبوه التاجر متوسط الحال فأعفاه من مواصلة الدراسة وتحمّل مضايقات العابثين خاصة وهو يتعثر فيها رغم ما يبذله من جهد كبير للاستذكار، وطالبه بالعمل معه فى تجارته استعدادا لأن يخلفه فيها بعد عمر طويل، واستراح الشاب الطيب لحياته الجديدة . . وقضى معظم أوقاته فى الوكالة التى يملكها أبوه مع عمالها . . يعايشهم ويستريح لحديثهم ويشاركهم طعام الغداء البسيط كل يوم ولا تختلف هيئته عن هيئتهم فى شىء وعبثا حاول أبوه أن يعلمه فن « الإدارة » وأسرار التجارة، فلم يجد لديه استعدادا عقليا لشىء من ذلك، فسلم أمره لله فيه وتساءل مشفقا فى باطنه: كيف سيدير ابنه الشاب هذا العمل من بعده وهو على هذه الحال؟ ثم ترك أمره للمقادير ورحل الأب عن الحياة فى

موعده المقدور، وأصبح هذا الشاب فجأة هو صاحب العمل ومديره المسئول، وأشفق عليه الجميع من الإفلاس الوشيك المؤكد، لأن التجارة تحتاج إلى عقلية اقتصادية، وقدرة على اتخاذ القرار السليم فى وقته المناسب، وقدرة على مراقبة أعمال الآخرين لكيلا يسرقوا جهده ويختلسوه لأنفسهم، والشاب عاطل عن كل ذلك، فماذا سيكون من أمره سوى أن يحل به وبأسرته الخراب بعد قليل، لقد حذره الناصحون مرارا . . وطالبوه بأن يراقب عماله جيدا، وأن يقدم الشك والارتياب على حسن الظن فيهم ليتجنب المهالك، واستمع هو للجميع شاكرا إخلاصهم، ثم لم ينفذ من وصاياهم شيئا، وسأل نفسه هو بمنطقه البسيط ولماذا يتوقع الجميع أن يسرقه هؤلاء الناس، وهو يحبهم وهم يحبونه ويشاركونه طعامه، وجلسات سمره البرىء بعد نهاية العمل . . ولا يرفض لأحدهم طلبا؟

ولماذا يتشكك البعض دائما فى نية الآخرين ولا يفترضون فيهم أبدا الأمانة والشرف إلى أن يثبت العكس؟ . . لقد استبعد على الفور أى سوء ظن فى هؤلاء العمال الذين يستريح إلى صداقتهم أكثر من غيرهم ولم يجد لديهم منذ نشأته إلا الحب والاحترام، حتى لو أفلت منه أمامهم أحيانا سلوك ساذج أو تصرف مرتبك قد يثير الابتسام، لقد كان زملاؤه بالمدرسة يسخرون منه فى مثل هذه المواقف بقسوة، لكن هؤلاء العمال لا يفعلون ذلك، وأقصى ما يفعله أحدهم إذا لاحظ ارتباكه فى موقف من مواقف العمل التجارى، أو اكتشف غلطة حسابية له، حيث لا يجيد الحساب، هو أن يتدخل لنجدته برفق، ويصحح خطأه على استحياء محاولا ستر عيبه وليس فضحه، فماذا يدعوه إذن للشك فى نيتهم تجاهه؟

إنه يعتمد عليهم ويثق فيهم، لكنه مادام الناصحون يلحون عليه، إذن فليؤمِّن نفسه ضد احتمالات الغدر وخيانة الأمانة باتخاذ بعض الاحتياطات الرقابية المهمة إرضاء للناصحين قبل أى شيء، أما هذه الإجراءات الخطيرة فلقد تمثلت فيما فعل وهو يتناول الغداء مع العمال عقب رحيل أبيه بأيام حين رفع بيده رغيف الخبز إلى مستوى جبهته. وقال لمن حوله بصوته الرفيع الذى تتآكل معه الحروف فيثير الابتسام من السامعين: ربنا على من يخون الخبز والملح! فإذا بالجميع يرددون وراءه «العهد» .. ويستريح ضميره هو ويتناول طعامه بعد ذلك بشهية عجيبة!

فإذا كنت من دارسى الاقتصاد وعلم إدارة الأعمال، فلربما تسخر من مثل هذا «الإجراء الرقابى» الخطير الذى اتخذه، وتتنبأ لتجارته بالبوار المؤكد خلال فترة قصيرة، ولن يلومك أحد على ذلك إذا فعلت، لكن كيف يكون ظنك بكل النظريات الاقتصادية والقواعد الإدارية والتجارية المستقرة، إذا عرفت أن هذا الشاب قد ربَّت تجارته وازدهرت أعماله .. وحقق لنفسه ولأسرته فى عشرين سنة ما لم يحققه أبوه التاجر الأريب المحنك الذى لم تكن تفوته فائتة من أعمال التجارة وفن الإدارة.

تسألنى كيف حدث ذلك وهو لا يملك القدرة العقلية اللازمة للنجاح ولا يجيد حتى الحساب، أو اتخاذ القرارات التجارية السليمة، فأجيبك بأنه هكذا قد قضى ربك ولا معقب على إرادته .. ولحكمة لا تخفى على الأذهان هى أن يراجع أصحاب الحيل أنفسهم ويسلموا له وحده بأنه سبحانه وتعالى من يرزق من يشاء بغير حساب وليس أحداً سواه، ولكى يتخففوا من غرورهم وغلوائهم واعتزازهم بقدراتهم وعبقريتهم ومالهم، ويعرفوا أن الفضل لمن منحك وليس لأى شيء أخر، فإذا كان العمل الناجح يتطلب من الإنسان الكفاح والصبر واتباع القواعد السليمة للإدارة والعمل، فكل ذلك صحيح ومطلوب، لكنه ينبغى بعد أن تفعل كل ذلك أن تؤمن أيضا بأن هذه هى الأسباب والوسائل التى نتوسل بها لتحقيق أهدافنا فى الحياة، ويبقى بعد ذلك أن ننتظر توفيق الله لنا .. وبغيره لا نحقق لأنفسنا شيئا ولو جرينا فى الدنيا جرى الوحوش، وقصة كل «فورست» مع الحياة هى خير برهان، وإذا كان هذا الشاب محدود القدرة العقلية، فلقد كان له من عقول وكيله ومساعديه ما يعوض به نقصه، وإذا كان يرتبك أمام بعض المواقف وقد يتخذ قرارا خاطئا حرجا من الرفض والاعتذار، فربَّ قرار يبدو لنا الآن خاطئا .. قد يحقق بعد حين نتائج باهرة.

ولسوف أروى لك نموذجين فقط من قرارات هذا الشاب الطيب التى لامه عليها الجميع، فلقد زارته أرملة فقيرة تربى أيتاما صغارا لترجوه وتلح عليه فى الرجاء أن يشترى بيتها الآيل للسقوط الذى تعيش فيه لكى تربى الصغار بثمنه بعد انقطاع كل مورد لهم، وتؤجر هى وأولادها غرفة رخيصة فى بيت آخر، ولقد لجأت إليه بعد أن رفض كل من عرضت عليهم شراءه، لأنه شبه متهدم وفى حارة ضيقة كشق الثعبان ومسدودة ولا أمل فى حسن استثماره فى المستقبل، فاعتذر الشاب الطيب هو أيضا عن الشراء وعرض عليها بدلا من ذلك مساعدة مالية صغيرة، لكنها بكت واستعطفته فلم يستطع الصمود أمام دموعها واشترى البيت بأعلى سعر قدرته هى وسط اعتراض وكيله وعماله وعتابهم له، وسخطهم الصاخب على هذه المرأة «الماكرة» التى عرفت كيف تستغل سذاجته وطيبة قلبه .. ووقَّع الرجل الأوراق ودفع الثمن وكان بضع مئات، ثم نسى أمر هذا البيت المهجور، وانشغل بحياته وتجارته إلى أن «ذَكره» به ذات يوم بعد ست سنوات رجل مهيب جاء يطلب شراءه لأن الحارة

الضيقة قد تحولت إلى شارع واسع بعد هدم بيوتها القديمة، ولأنه يريد أن يبنى عمارة حديثة فى موقع هذا البيت المتهدم . . « فيتذكر » البيت القديم ويسأل الرجل عن الثمن الذى يرغب فى دفعه، فإذا به يعرض عليه فيه بضع عشرات من الألوف، وإذا بوكيل الشاب الطيب يتدخل فى الحديث ويطلب زيادة فى السعر ويستجيب المشترى ويربح الشاب ثروة جديدة لم يحسب لها حسابا من قبل.

أما القرار الآخر الأكثر حظا، فلقد اتخذه حين زاره فى الوكالة مهندس البلدية ومأمور الشرطة واثنان من أعضاء المجلس البلدى يطلبون منه باعتباره من « سراة » المدينة، شراء ألف متر فى موقع عمرانى جديد للمدينة الصغيرة، وقد أملوا فيه أن يشترى هذه المساحة لكى يشجع خطط تعميرها بعد أن خذلهم معظم تجار المدينة الحصفاء وبرروا رفضهم بأن المنطقة جديدة، ولا تعد بأى مستقبل، ويجفل الشاب الذى فطر على تهيب الحكومة من أن يرفض هذا الطلب لأنه لا يملك الشجاعة النفسية لذلك، لكنه يأمل فقط فى الرأفة بحاله وفى أن يقبل هؤلاء الأشخاص المهمون توسلاته إليهم أن يترفقوا به ويقبلوا مساهمته فى مشروع التعمير بشراء مائتى متر فقط، بدلا من ألف.

لكن الأشخاص المهمين يتعمدون استغلال حرجه منهم وتهيبه الواضح لهم ويلحون عليه أن يقبل شراء المساحة كلها، ولسوف يقدرون له كثيرا هذه المساهمة المشكورة فى تعمير المدينة، ولسوف يشيدون بوطنيته فى اجتماع المجلس البلدى القادم، فلا يجد الرجل مناصا من القبول حرجا وحياء وعجزا عن المقاومة والرفض، ويوقع الأوراق وهو حزين ووكيله غاضب . . وأهله ثائرون على ضعفه وخيبته، ويسدد الثمن بالتقسيط وكلما حل موعد سداد قسط تجدد اللوم له والعتاب . . فلا تمضى عشر سنوات فقط حتى تصبح هذه المنطقة الجديدة هى ريفيرا المدينة، ويرتفع سعر المتر فيها من بضع جنيهات إلى بضع مئات، وتنهال عليه طلبات الشراء بالأسعار العالية فيصبح الرجل مليونيرا من حيث لم يقصد، ويلاحقه التوفيق بعد ذلك فى كل خطواته وبلا جهد يذكر من جانبه . . ولا فضل له اللهم إلا حسن نيته وسلامة طويته وتواضعه لربه وشكره الدائم له على نعمته، فإذا كان من أهداف الحكمة الإلهية فى رزق من لا حيلة له، أن يتعجب أصحاب الحيل فلقد حققت الحكمة الإلهية فى حالة هذا الرجل هدفا آخر هو أن « يتعجب » من لا حيلة له نفسه من هذا الرزق المنهمر عليه بلا حساب، ولقد كان الرجل دائم التعجب بالفعل من توفيق الله له فى كل أعماله وخطواته، ودائم الشكر لله على فضله ونعمته، ولا يدعى لنفسه حصافة ولا عبقرية ولا نبوغا، ولقد كان آخر ما عرفت من سيرته أنه قد دأب فى سنواته الأخيرة، وكلما فوجىء بثروة جديدة تهبط عليه من حيث لا يدرى ولا يحتسب، أن يرفع رأسه إلى السماء أمام الجميع، ويخاطب ربه شاكرا و«راجيا»: كفاية كده يا رب . . أعط غيرى!

فلا يزيده ربه إلا ثراء على ثراء، ونعمة على نعمه « وسنجزى الشاكرين » صدق الله العظيم.

فما رأيك فى قصة فورست المصرى هذا وأمثاله؟

وما رأيك فى بعض محدثى النعمة الجدد الذين يصعرون خدودهم للآخرين ويتعالون على الجميع ويمشون فى الأرض مرحا، ويستشعرون فى أنفسهم كبرياء زائفا . . وعبقرية موهومة . . وقوة كاذبة . . ولسان حال كل منهم يقول أنه قد حقق لنفسه ما حققه « على علم عنده » . . وليس لأن « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » وهذا حق وصدق، ولو كان الجميع من أصحاب الحيل والنبوغ؟

القاهرة الساعة ٣

هل مازال لدى أحد شك الآن فى أن « الزمن هو أعظم المؤلفين » كما قال صادقًا ذات يوم الفيلسوف الإنجليزى فرنسيس بيكون؟

إذا كان لدى أحد شك فليراجع مرة أخرى تلك الرسالة العجيبة التى نشرتها منذ فترة فى بريد الجمعة بالأهرام، لقد حكت الرسالة التى كتبها إلىّ شاب فى الثلاثين من عمره من الأحداث الدرامية ما يعجز عنه خيال أكثر المؤلفين، وصدقتها بالرغم من ذلك لأن نبرة الصدق الإنسانى فيها كانت أعلى من أن أستطيع الشك فيها أو فى نية كاتبها.

أما القصه باختصار شديد فهى أن كاتب الرسالة كان طالبًا جامعيا مستهترًا لا يشغله من الحياة هو وعدد من أصدقائه سوى ما يشغل بعض الشباب اللاهى من قصص المغامرات الغرامية.. وارتداء أشيك الملابس وركوب أحدث السيارات، فكانت النتيجه أن تعثروا فى الدراسة واستنفدوا مرات الرسوب وفصلوا من الكلية فالتحق هو وأقرب أصدقائه بمعهد متوسط على أمل الحصول على شهادته والانتساب لإحدى الكليات الجامعية، سعيًا وراء تحسين صورتيهما السيئتين أمام أسرتيهما، ونجحا بالفعل فى ذلك والتحقا بالكلية ونجحا فى السنة الأولى، ثم نجح كاتب الرسالة فى السنة الثانية أما صديقه فقد تعثر مرة أخرى فى دراسته لأنه انصرف عنها إلى علاقة محرمة نشأت بينه وبين

سيدة متزوجه لم يصرح لكاتب الرسالة باسمها واكتفى هو بأن يحذره من أن يكتشف زوجها أمره ومن خلال أحاديث صديقه المستمرة عن هذه السيدة المتزوجة بدأ الشك يساور كاتب الرسالة فى أنها إحدى قريباته المقربات بل إحدى محارمه، وألح على صديقه فى أن يكشف له عن شخصيتها لكنه رفض بإصرار فبدأ كاتب الرسالة يراقب صديقه خفية ليتأكد من صدق ظنونه.. إلى أن جاء يوم ورأى سيارة صديقه تقف على مقربه من بيت قريبته، ثم رآها تأتى إليه وتركب بجواره ويمضيان معا فتبعهما بسيارته فإذا بهما يتوقفان أمام عمارة حديثه فى أحد ميادين ضاحية مصر الجديدة.. وينزلان من السيارة ويدخلان « كافيتريا » بالدور الأرضى من العمارة.. ووقف هو يفكر ثائرًا ماذا يفعل هل يفاجئهما داخل الكافيتريا ويفجر فضيحة مدويّة فيصفع قريبته ويضرب صديقه الذى خان صداقته؟ أم ينتظر خروجهما ويفاجئهما بظهوره أمامها.. فلا يدع لأحدهما مجالاً للإنكار؟ ولم يطل به التفكير كثيرًا.. فلقد أحس فجأة بالأرض تميد تحت قدميه ثم رأى العمارة التى تقع الكافيتريا أسفلها تنهار كلها فى لحظة مأساوية نادرة وتتحول فى لمح البصر إلى جبل عال من الركام والأنقاض والتراب فوق كل من كانوا داخلها، فأصابه الذهول وفقد القدرة على الكلام والحركة والتصرف، ولم يدر بنفسه بعد ذلك إلا مريضًا بالاكتئاب النفسى وملازمًا للفراش لأكثر من عام عولج خلاله من الاكتئاب ومازال يتردد على طبيبه النفسى ليعالج ما بقى من آثاره حتى الآن.

ولا عجب فى ذلك فلقد شهد لحظة قَدَرية فاجعة هى لحظة زلزال ١٢ أكتوبر عام ١٩٩٢ فى الساعة الثالثه و٣٥ دقيقه بعد الظهر، وشهد انهيار عمارة الموت الشهيرة بمصر الجديدة.. وشهد دفن عدد كبير من رواد تلك الكافيتريا المشئومة « الأرنب الضاحك » تحت الأنقاض...،

ولقد قامت قوات الإنقاذ وقتها بإخراج عدد كبير من السكان أحياءً، وانتشلت جثث عدد كبير من الضحايا، وخرج من هذه العمارة حيّا بعد ثلاثة أيام الشاب أكثم الذى تحققت له معجزة البقاء على قيد الحياه بعد وفاة زوجته وطفلته وأبويه إلى جواره . . ، ولم يتم التعرف على شخصيات بعض الضحايا الذين كانوا بكافيتريا الدور الأرضى من هذه العمارة فدفنوا بمقابر الصدقة ومجهولى الهوية .

أما لماذا قرر كاتب الرسالة أن يروى لى هذه القصة المفجعة بعد أكثر من ثلاث سنوات من وقوعها، فلأن أسرة قريبته لم تعرف حتى الآن شيئًا مؤكدًا عن مصيرها الدامى ومازال زوجها وابنتها يعتبرانها مفقودة، ومازالت ابنتها الشابة تأمل فى أن تكون فاقدة الذاكرة أو العقل فى مكان ما، أما والد صديقه فمازال يعذب نفسه بالإحساس بالذنب عن أنه مسئول عن مصير ابنه « المفقود » لأنه كان قد ضاق قبل ٥ أيام فقط من الفاجعة باستهتاره فطرده من بيته، ولم يره من بعدها ومازال يتعذب بإحساسه بأنه قد أعان أقداره المجهولة عليه .

وسألنى كاتب الرسالة الشاب بعد ذلك، هل يصارح أسرة قريبته ووالد صديقه بما جرى لهما وكان شاهد عيان عليه فى لحظة درامية نادرة؟، وهل يكشف لهما ما كان من أمرهما معا مما جمع بينهما ورشحهما لهذا المصير المؤسف؟

فأشرتُ عليه بأن يكتم ما ستره الله عليهما، بعد أن مضى كل منهما إلى مصيره وأصبح بين يَدَىْ خالقه ولن يكون لفضح ما كان من أمرهما من عائد الآن سوى إيلام مشاعر الأبرياء كالزوج والابنة والأب، وكلهم ضحايا وليسوا جناة ولا ذنب لهم فيما جرى، أما مصير الزوجة والصديق فيستطيع أن يخرج أسرتيهما من الحيرة بشأنه بأن يؤكد لأسرة قريبته

ووالد صديقه أن أقداره هو قد ساقته يوم الهول العظيم إلى موقع عمارة الموت فرأى بالصدفة كلاً من قريبته وصديقه يدخل العمارة منفردًا لشأن من شئونه . . فلم يكد يلمحهما حتى انهارت العمارة فوق من كانوا فيها، وأصيب هو بالذهول ثم بالاكتئاب النفسى حتى ساوره الشك فى أن يكون من رآهما هما قريبته وصديقه حقا . . ثم كتب الله له الشفاء ولم يعد لديه الآن أدنى شك فى مصير كل منهما .

هذه هى القصة التى لم يكتبها مؤلف درامى وهيهات أن يستطيع أحد أن يكتب مثلها . . ولو فعل لرشحت له عنوانًا ملائمًا هو « القاهرة الساعة٣ » إشارةً إلى لحظة الزلزال المروع الذى لم تنكشف حتى الآن كل أسراره وخباياه وآثاره .

ومن عجب أن زلزال القاهرة الرهيب فى أكتوبر ٩٢ لم يحرك إلى الآن خيال المؤلفين فيكتبوا لنا أعمالاً درامية تكون لحظة هذا الهول الأعظم محورها أو قاسمًا مشتركًا فيها، فى حين أن حادثًا صغيراً وقع فى روما عام ١٩٥١ قد دفع السينما الإيطالية إلى تقديم فيلمين جميلين وناجحين عنه . ففى يناير من ذلك العام ظهر فى الصحف الإيطالية إعلان صغير يطلب موظفة شابة للآلة الكاتبة بمكتب محاسب فتقدمت للمكتب مائتا فتاة تجمعن فى انتظار دور كل منهن للمثول أمام صاحبه فوق سلم البيت الذى يقع به المكتب، فوقعت الكارثة وانهار السلم . . وتحطمت ضلوع عدد كبير من الفتيات وسيقانهن ولم تلق إحداهن مصرعها، ومع ذلك فلقد أثار الحادث اهتمام الرأى العام الإيطالى بشدة ولم يمض أكثر من عام حتى كانت السينما الإيطالية التى اشتهرت بواقعيتها قد قدمت عنه فيلمين : الأول اسمه « روما الساعة ١١ » إشارة إلى لحظة الكارثة والثانى اسمه « ثلاث قصص ممنوعة » .

وقد اعتبر النقاد وقتها فيلم « روما الساعة ١١ » هو أكثرهما عمقًا وتعبيرًا عن المأساة التى دفعت مائتى فتاة للتزاحم على وظيفة واحدة للآلة الكاتبة . وتبدأ قصته منذ الصباح الباكر ليوم الحادث فنرى الفتيات قادمات وفى يد كل منهن الصحيفة التى نشرت الإعلان وهى تبحث عن عنوان المكتب . . ونشاهد نماذج إنسانية متباينة بينهن فنرى إحداهن ترتسم على وجهها معالم الطيبة والسذاجة والخوف لكن أمها تشجعها وتبث فيها الثقة والشجاعة لمواجهة الموقف ، ونرى فتاة أخرى يعكس وجهها آثار تجربة حزينة ، فنفهم أن صاحب العمل المتزوج الذى تعمل معه قد غررّ بها على وعد منه بطلاق زوجته والزواج منها ثم نكث بوعده وعجزت عن ترك العمل ومغالبة مشاعرها لفترة طويله وأخيرًا حسمت أمرها وقررت ترك العمل والالتحاق بمكتب هذا المحاسب ، ونرى فتاة جميلة ثالثة تتقدم إلى العنوان فى حياء وتردد ، وتنظر من حين لآخر إلى جوربها وتراقب العيون من حولها فى حذر خشية أن تكتشف خروقه الكثيرة وما إن تستقر فى الطابور حتى تتقدم منها فتاة أخرى ، وتهمس فى أذنها ببضع كلمات فتستبدل معها خفية حذاءها . . ونفهم أنها أيضًا قد استعارت حذاء أختها لكن أختها فى حاجة الآن للحذاء لكى تلحق بعملها ، ورغم علامات البؤس الواضحة عليها فإنها تستلفت نظر بحار شاب يقف أمام البيت ويتحدث إليها بإعجاب فتستجيب له وتتبادل معه العنوان . . ويعدها البحار بأن يكتب إليها من وراء البحار فتتجدد آمالها مرة أخرى فى الحياة .

ويتضاعف عدد الفتيات لحظة وراء أخرى أمام الباب المغلق للعمارة ، فهذه تحمل أحزان الحياة كلها فى أعماقها لأنها وزوجها لم

يجدا أى عمل طوال الشهور الستة الماضية ، وهذه حرمتها الأقدار من الجمال فحرمها الناس من فرصة عمل تتكسب به . . وتلك اضطرتها ظروف الحياة القاسية إلى امتهان كرامتها فى طريق الخطيئة لكنها تحلم الآن بحياة نظيفة وتأمل أن تكون هذه الوظيفة هى خطوتها الأولى إليها ، وهذه فتاة ثرية أحبت فنانًا مفلسًا فغضب عليها أبوها وحرمها من رحمته وثروته . ويسقط المطر بغزارة فوق الفتيات المتجمعات أمام باب البيت المغلق فيطلبن من حارسة العمارة أن تسمح لهن بدخولها ليحتمين بالبهو من المطر ، لكن حارسة العمارة القاسية ترفض ذلك بإصرار لكيلا يزعجن السكان من أكابر القوم . . فلا تلبث أن تخلق الظروف المشتركة بينهن نوعًا حميمًا من التعاطف والتآزر بالرغم من أن فوز إحداهن بالوظيفة يعنى حرمان الأخريات منها ، فيتكاثرن على الحارسة القاسية ويدفعن الباب بأجسادهن ويقتحمنه ويتبادلن العطف وتقدير الظروف حين تتحدث كل منهن عن حياتها حتى لتعرض إحداهن على أخرى مساعدتها فى امتحان الآلة الكاتبة لتفوز بالوظيفة لأن ظروفها أقسى . . ثم فى لحظة قدرية فاجعة ينهار السلم بهن جميعا وتتطاير الأجسام وسط صيحات الفزع الرهيبة وتتطاير معها أحلام الوظيفة والأمان !

وينتهى الفيلم نهاية أشد تعبيرًا عن الظلم الاجتماعى حين تنظر قضية انهيار السلم أمام القضاء . . ، وتأمل المصابات فى الحادث فى الحصول على تعويض عادل من مالك العمارة فإذا بألاعيب المحامين وسطوة المال والنفوذ يقلبان الحقائق فوق رؤوس الضحايا وينتهى الأمر بإقرار سلامة السلم والعمارة وبراءة المهندس الإنشائى . . أما لماذا انهار السلم إذن رغم ذلك فلأن الفتيات قد استبدّ بهن القلق فحاولت كل منهن أن

تسبق الآخريات للدخول إلى مكتب المحاسب، مما أدى إلى تعريض السلم للخطر وانهياره، وبالتالى « فالمرحوم غلطان » دائمًا وأبدًا وكما هو الحال فى كل مجتمع تضيع فيه حقوق الإنسان العادلة فى الكرامة والمساواة وتكافؤ الفرص.

أما فيلم « ثلاث قصص ممنوعة » فقد تناول الحادث من زاوية أخرى مخملية ولا أثر فيها لأى فكر اجتماعى، فقدّم ثلاث فتيات من بين ضحايا هذا الحادث وروى قصة حياة كل منهن، فكانت الأولى صبيةً لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها اعتدى عليها كهل فى الخمسين من عمره فغادرت قريتها الصغيرة وقادتها أقدارها إلى روما لتبحث عن عمل ووقفت فى طابور الفتيات فوق السلم المشئوم وأما الثانية فكانت زوجة شابة جميلة لشاب ثرى يميل للوحدة وينشغل بهواية اللاسلكى عن كل شيء آخر ويرفض الإنجاب حتى لا يشغله شاغل عن هوايته فتضيق بسأم الحياة معه وتقرر العمل ويقودها ذلك إلى مكتب المحاسب، وأما الثالثة فلم تكن طالبة وظيفة وإنما فتاة على وشك الزواج وتربطها علاقة آثمة بشاب عابث، فتحاول قطع علاقتها به والمضى فى مشروع الزواج فيطاردها الشاب ولا يدع لها مجالا للانسحاب، ثم أخيرًا تحسم أمرها فتقرر أن تقضى معه آخر ليلة لها قبل الزواج وتذهب إليه فى الليلة السابقة ليوم زفافها وتقضى معه الليل فى شقته بنفس العمارة التى يقع بها مكتب المحاسب، وتغادرها فى الصباح لتستعد لزفافها فى نفس اليوم فتجد السلم مشغولاً بزحام هؤلاء الفتيات وتحاول أن تشق لنفسها طريقًا وسطهن فتقع الكارثة وتصبح إحدى الضحايا.

هذان هما الفيلمان اللذان قدمتهما السينما الإيطالية عن هذا الحادث « الصغير » نسبيًا منذ حوالى ٤٠ عامًا ولست فى حاجة لأن أقول لك إننى قد فُتنت بالفيلم الأول ومازلت استرجع بعض أحداثه حتى الآن.

فمتى تقدم السينما العربية فيلمًا أو مسلسلاً تليفزيونيًا عن أهوال زلزال أكتوبر الشهير وما تلاه من « توابع » مازالت تترى حتى الآن؟وألا تصلح قصة تلك المرأة المتزوجة وصديقها الشاب العابث اللذين اختارت لهما الأقدار هذه النهاية الفاجعة تحت أنقاض كافيتريا «الأرنب الضاحك» لتكون بداية لأعمال درامية جديدة تتتبّع قصص ومصائر بعض سكان هذه العمارة المشئومة وغيرها من البيوت المنهارة؟

لا أنت سقراط.. ولا هى زوجة الفيلسوف!

أواجه هذا الموقف المحرج كثيرًا!

أن يكتب لى زوج شاكيًا من زوجته مُرّ الشكوى ومتهمها إياها بالشراسة . . والتنمّر وإدمان النكد وعدم فهم شخصيته وطبيعته الرومانسية فأنشر رسالته وأعلقّ عليها بما يتراءى لى من رأى، وأنصح زوجته بما أراه فى صالحها وصالح أسرتها.

ثم تكتب إلىّ هذه الزوجة بعد نشر الرسالة أو تزورنى فى مكتبى عاتبةً، ومتهمةً زوجها بإخفاء نصف الحقيقة الآخر . . وهو أنه ليس قطا أليفًا كما زعم لى وإنما هو أيضًا مزعج ومهمل لواجباته العائلية والزوجية . . وأكثر شراسة وإدمانا للنكد منها!

وبخبرتى التى اكتسبتها خلال سنوات اقترابى من هموم الآخرين ومشاكلهم فى بريد الجمعة . . أتحاور مع هذه الزوجة بهدوء وصبر فألتمس لزوجها بعض العذر فى شكواه، وألتمس لها هى أيضًا بعض العذر فى هياجها الدائم عليه وأطلب من الاثنين أن يلتقيا على كلمة سواء هى أن يبذلا كل جهدهما لتجنب أسباب التشاحن والتنافر بينهما وأن يهيئا لأبنائهما الحد الأدنى من السلام العائلى، الذى يتيح لهم أن يتمتعوا بطفولتهم وصباهم بغير منغصات الشجار المزعج بين الأبوين، ومع مرور السنين فلقد تعلمت ألا أسلِّم بكل ما يقوله طرف عن الطرف الآخر

تسليمًا تامًا وأن أحاول أن أستشف من حديثه أو من بين سطور رسالته بعض ملامح الوجه الآخر للحقيقة الذى ينشغل عنه فى غمار شكواه من الطرف الآخر، ومع ذلك فقد تَشى بعض كلماته بما يكشف عن بعض أسباب المشاكل والخلافات التى يتَحمل هو بعض مسئوليتها.

كما علمتنى الحياة أيضًا أن العلاقة الزوجية على وجه الخصوص . . علاقة لا يمكن الحكم عليها فى معظم الأحيان بالمعايير الصارمة التى لا تتعامل إلا مع اللونين الأبيض والأسود وحدهما، وأننا لا نستطيع فى كثير من الأحيان أن نقول عن هذا أنه مخطئ مائة فى المائة فى كل شىء، وعن الآخر أنه حَمَل وديع ومظلوم مع الآخر مائة بالمائة فى كل شىء، فبين هذين اللونين هناك دائمًا مساحات متدرجة من الألوان والأطياف، ومعيار التفاضل الأنسب بين الطرفين إنما يكون بمساحة الأبيض فى سلوكه وتصرفاته ومشاعره تجاه الطرف الآخر بالقياس إلى مساحة الأسود من سلوكياته وعصبيته، وأنانيته أو استهتاره وأخطائه الشخصية.

ولقد جدَّدت هذه الرسالة تأملاتى حول هذه الحقيقة وأثارت أيضًا ابتسامى!

فلقد نشرت منذ بضعة شهور رسالة لزوج بعنوان « القطة المتوحشة » يشكو فيها من شراسة زوجته وعصبيتها ونكدها المستمر . . وكيف تفرض الأحكام العرفية على البيت والأولاد . . ولا تكف عن الشجار معهم وتضيق عليهم الخناق فى الدخول والخروج وفى علاقاتهم بأصدقائهم بدعوى ضرورة التفرغ للمذاكرة إلخ . . وراح ينعى حظه الذى جمع بينه وبين هذه الزوجة المتفجرة دوما كالبركان وهو الشاعر الرقيق الذى يتلمس الجمال فى الأشياء ويطلب الهدوء ويحب التأمل إلخ . . ولست أذكر الآن ما علقّت به على رسالته . . كما نسيت الرسالة

نفسها فى غمار ما أتلقاه من رسائل إلى أن تلقيت هذه الرسالة من زوجته فأعادتها إلى ذاكرتى من جديد وقد بدأتها بقولها :

أنا سيدة فى الأربعينات من العمر . . ذات شخصية حازمة بشهادة من حولى من زملاء العمل وأفراد الأسرة لكن هذه الشخصية الحازمة لم تكن لى قبل زواجى وإنما اكتسبتها خلال رحلة الحياة والزواج ، وكنت وأنا فتاة إنسانة منظمة وإيجابية وأقدّر المسئولية وعندى طموح معتدل إلى الحياة الأفضل لكن الأقدار شاءت لى أن أرتبط بإنسان كسول ومتراخ ومعقّد ومشغول بنفسه دون غيرها . . فاضطررت لأن أمتلك زمام حياتى وحياة أسرتى وإلا قادنا زوجى إلى الهلاك بكسله وتراخيه وانعدام طموحه وانشغاله بالشعر عن كل شىء آخر ! وهذا الزوج المهمل الذى لا يعرف فى أى سنة يدرس أبناؤه هو الذى كتب يشكونى إليك ويصفنى بأننى قطة متوحشة وأننى أزأر طوال النهار فى وجهه وفى وجوه الأبناء لكى يؤدوا واجباتهم ويتحملوا مسئولياتهم ، ولقد تزوجته لأننى شعرت بالإشفاق عليه ! فقد كان زميلاً لأخى فى العمل ، ورحلت والدته عن الحياة ثم جاء فى نفس هذه الفترة الحزينة فى حياته إلى البيت لزيارة أخى فى وعكة صحية ألمّت به . . ورأيته شابا ضئيل الجسم نحيلا كالشبح وعرفت من أخى أنه قد حرّم اللحم على نفسه حين ارتفع سعرها تضامناً مع الفقراء الذين يعجزون عن شرائها ! ! وقدّرت فيه هذه المشاعر الإنسانية حتى ولو كانت متطرفة وشعرت بالإشفاق عليه لضآلة جسمه ونحوله الشديد ووحدته بل وبكيت حين استرجعت فى مخيلتى صورة وجهه الشاحب العليل ، ووافقت على الفور حين أبلغنى شقيقى أنه يطلب يدى وقلت لأخى إننى لن أكون له زوجة وإنما أمًا وأبًا وأختًا تنسيه مشاكله ومعاناته .

وقمت بإعداد جهاز البيت كله دون مساعدة منه مراعاة لظروفه المادية وبدأت حياتى معه ، وأنجبنا الأبناء وازدادت الأعباء العائلية مع مرور السنين وتَقدُّم الأبناء فى مراحل الدراسة ووجدت نفسى مطالبة بأن أكون رب الأسرة المسئول عنها وإلا انهارت وحاصرتنا المشاكل والمتاعب من كل جانب ، فزوجى ياسيدى شاعر وقصاص غير معروف إلا فى الأوساط الأدبية المحدودة بمدينتنا ، وهو بطبيعته لا يطيق تحمل المسئولية العائلية ويكتفى منها بأن يقبض مرتبه كل شهر ويقتطع منه قدراً معينًا للمواصلات ونفقات المقاهى الأدبية التى يرتادها ثم يسلمنى الباقى ويطلب منى تدبير حياة الأسرة والأبناء به وينسى كل شىء بعد ذلك عنى وعن الأولاد وشئون البيت . . وكلما زاره خاطر الشعر فإنه لا يكتمل عنده إلا إذا افتعل مشاجرة كبيرة معى يفرغ خلالها شحنته الانفعالية ثم يسهر بعدها للصباح يكتب بمزاج غريب وكأن شيئًا لم يكن فى حين أظل أنا متوترة الأعصاب بالنكد الزوجى إلى ما لا نهاية . . وفى الصباح يبحث عما كتبه خلال الليل فلا يجده ويسأل عنه ويثور ويحمر وجهه ويتصبب عرقًا لأنه ضاع منه فى ذهوله وقد نجده بعد ذلك وقد لا نجده !

وفى كل يوم يذهب إلى عمله . . ويرجع منه فى الظهر مرهقًا من زحام المواصلات فيتناول طعام الغداء وينام وينهض من نومه فيرتدى ملابسه ويخرج إلى المقاهى الأدبية والندوات التى يلتقى فيها بزملائه من الشعراء والأدباء المغمورين ، وهذه المقاهى والندوات هى ساحات للنميمة الأدبية . . يروى فيها كل مغمور حكاياته وينفسٌ عن إحباطاته وغيرته من المشاهير والناجحين من الأدباء والشعراء ، ويحكى كل منهم عن معاناته مع زوجته التى لا تفهمه ولا تقدر شاعريته وموهبته ، وتقتل روح الفنان فيه بمطالبتها له بأن يهتم بشئون البيت والأولاد والمدارس وأسعار اللحوم والخضراوات مما لا يليق بالشعراء والأدباء من أمثالهم !

ويرجع كل واحد منهم إلى بيته « بحلول » مبتكرة للمشاكل الزوجية والأعباء العائلية، فلا أكاد أسمعها من زوجي حتى أنفجر فيه لأنها حلول خيالية ووهمية!

وهكذا فقد وجدت نفسي يا سيدى المسئولة الأولى والوحيدة عن حياة أسرتى ولو لم أتحمل مسئوليتى الكاملة عنها لانهار البيت منذ زمن طويل؛ فتربية الأبناء مسئوليتى الكاملة، وكذلك الإشراف على مذاكرتهم ودروسهم وعلاقاتهم بأصدقائهم وتدبير نفقات الدراسة ومصروفهم الشخصى، أما زوجي فهو هائم فى دنيا الخيال ومترفع عن الاهتمام بهذه « الصغائر » التى تفسد عليه شاعريته وموهبته الأدبية.. وإذا طلب منه الأبناء شيئًا قال لهم إنه قد أعطى مرتبه لأمهم وليس مسئولاً بعد ذلك عن شيء، وإذا واجهتنا مشكلة مادية فالحل الوحيد الذى يملكه لها هو الاقتراض! ولا يجد أية غضاضة فى مد يده إلى أصدقائه مقترضًا منهم بلا حياء، وحين أعاتبه فى ذلك يقول لى: ماذا أفعل؟ أليس ذلك أفضل من أن أسرق أو أرتشى!

هذا هو زوجي الذى يصفنى بأننى قطة متوحشة، وهو القط الوديع الأليف الذى لا يطلب منى كما قال لك إلا أن أكف عن تعكير صفو مزاجه والكف عن محاولة إنزاله من سماوات الفن إلى أرض الخضار واللحم وإيجار الشقة وحساب البقال ومذاكرة الأولاد!

وهذا هو زوجي الذى يقول لك إننى لا أكف عن الصياح فى وجوه الأبناء، فى حين أنه لا يذكر أنه قد انفعل عليهم ذات مرة، وفى هذه النقطة بالذات كان زوجي صادقًا وليته لم يكن كذلك.. فهو لأنه يعيش لنفسه وللفن فقط لا يعرف شيئًا عن الأبناء ولا عن مشاكلهم ولا عما يفعلونه فى حياتهم، ويترك لى وحدى كل ذلك فأبدو أنا القطة

المتوحشة التى تنهر الأبناء وتراقب سلوكهم ودراستهم وإذا كان زوجي يعتقد أنهم يحمدون له عدم مضايقته لهم بالحساب والعتاب والسؤال عما يفعلون فهذا دليل آخر على ما يعيش فيه من أوهام وخيالات، فالأبناء يفتقدون دوره كأب ولا يشعرون بوجوده وهو بينهم، وكثيرًا ما قالوا لى أنهم يتمنون لو صاح فيهم أبوهم ونهرهم لكى يشعروا باهتمامه بأمرهم ويعرفوا معنى الأبوة والمسئولية عنهم.

ولو لم تصدقنى فى ذلك يا سيدى فإن أبنائى على استعداد لأن يتصلوا بك تليفونيًا ليؤكدوه لك.

لقد شكانى زوجي إليك.. وكتب رسالته بأسلوبه الأدبى لكى تصدق أنه مغلوب على أمره معى، لكن ردك على رسالته كان عادلاً.. ومنصفًا لى، فدعوت لك بالصحة وطول العمر على البعد لأنك بشفافيتك قد أدركت أن هناك أسبابًا لم يذكرها فى رسالته لعصبيتى مع الأبناء، وقلت له فى ردك: إن الزوجة حين تستشعر عدم قيام زوجها بمسئولياته العائلية عن الأبناءوالبيت فإنها تجد نفسها مضطرة لملء هذا الفراغ، وللقيام بدور رب الأسرة والأب للأبناء إلى أن يرجع الأب من « غربته النفسية » ويتحمل مسئولياته، لكن كل زوجة وأم إنما يسعدها أن يتحمل زوجها مسئولياته عن أبنائه وأسرته، ولا تسعد أبدًا بتخلّيه لها عنها!

ولقد فعلتُ ما قلتَ له بالضبط ونسيت نفسى كامرأة وكرست حياتى لأبنائى وبيتى وطاعة ربى، وحرصت على أداء الفروض الدينية لكى يشرح الله صدرى ويعيننى على تحمل مسئولياتى.

وما يؤرقنى وأنا أكتب لك هذه الرسالة أن زوجي الآن فى حالة مخاض فنى لقصيدة جديدة.. كتب منها بيتين على علبة كبريت ولا

يعرف كيف يستكملها ولن يستكملها إلا إذا افتعل مشاجرة كبيرة معي، يسهر بعدها طوال الليل ليكتب وهو في منتهى الانبساط والانشراح وأنا في منتهى النكد والغم، لكنه لم يستطع تدبير هذه المشاجرة لأن الأبناء يذاكرون لتحسين مجموعهم في الثانوية العامة، ولأنهم قد هددوا بترك البيت أو الانتحار إذا سمعوا أصوات الشجار والصياح بين أبويهما مرة أخرى، ولهذا فهو يعاني المخاض الشعري بغير أن يستطيع التنفيس عن انفعالاته بالشجار، ويفلت منه الزمام في بعض الأحيان فيصيح فلا أستجيب لصياحه ونداء المشاجرة وأتركه لغيظه وانفعالاته! لقد حاول أن يصورني في رسالته لك أنني زوجة سقراط التي كانت تلقي عليه الماء القذر وهو يجلس بين تلاميذه لأنها لا ترى فيه فيلسوفًا عظيمًا كما يراه العالم وإنما زوجًا دميمًا خائبًا.. فهذا هو زوجي الذي يحب أن يوهم نفسه أنه سقراط وهذا هو أنا التي يحب أن يصورني في صورة زوجة الفيلسوف التي لم تقدر «عظمته» ولم تشعر بها.

فأي الصورتين أصدق عندك الآن ياسيدي أنا أم زوجي؟

مع تحياتي ودعائي لك بالستر والصحة ودوام الشفافية التي تكشف بها الحقائق بين سطور من ينمّقون الكلام ليظهروا أنفسهم في صورة الملائكة الأطهار!

هذه هي الرسالة التي أثارت تأملاتي وابتسامي لغرابة صورة الحياة التي ترسمها سطورها، ولإثارتها للمشكلة القديمة عن زواج «الفنان» والصراع الأبدي بين رومانسيته وذاتيته وبين الطبيعة العملية لزوجته وللحياة بصفه عامة! فالفنان بطبعه إنسان غير متوازن وغير متوافق غالبًا مع ظروفه ومع الحياة من حوله كما أنه متمرد بطبعه على المألوف، وعلى روتين الحياة العادية، ويطلب من الآخرين أن يسلّموا له بتفرده «وامتيازه» ويصفحوا عن شروده وخروجه على المألوف وتمرده على بعض مسئوليات الحياة وضروراتها، والزوجه مهما كانت مثقفة ورومانسية فإن طبيعتها العملية تغلب عليها في النهاية، فتنفر من الزوج الذي يريد منها أن تعفيه من كل المسئوليات لكي تتحملها دونه.. ويطالبها بألا تلومه على ذلك.. وألا تتضجَّر من هذه الأعباء وإنما ترقبه «بسعادة» وهو يحلق في السماء طائرًا حرًا سعيدًا.. يحط حيث يشاء.. ويغرد حين يشاء!

فيبدأ الصراع دائمًا بين الاثنين وتحاول الزوجة بكل جهدها وأسلحتها - ومنها سلاح النكد الزوجي - أن تنزل زوجها من سماء الخيال إلى أرض الواقع.. ويتمرد الزوج على ما يسميه قيود الحياة الزوجية وأعباء الحياة العملية ويشرد بعيدًا، أو يشكو من زوجته التي لا تفهمه ولا تقدر له «عبقريته» وذاتيته المتفردة!

والصراع أبدي وقديم بين الطبيعتين في كل علاقة زواج.. وليس ضروريًا أن يكون الزوج أديبًا أو شاعرًا أو موسيقيًا أو رسامًا، لكي يطلب لنفسه كزوج حرية الفنان أو جموحه، فكل إنسان مهما كان عمله لا تخلو شخصيته من جانب فنِّي يدفعه للتمرد على القيود، ويغريه بالتحليق في أجواء الفضاء.. لكن المشكلة تتضح أكثر في زواج المثقفين والفنانين والمهتمين بما هو أكثر من مطالب الحياة المادية، ولسوف يستمر هذا الصراع إلى الأبد حتى ينزل كل طرف من الطرفين عن شيء من عاداته وطباعه من أجل الآخر، فتقبل الزوجة ببعض شرود زوجها ورغبته في أن يشعر بأنه ليس زوجًا تقليديًا وإنما إنسان له طبيعته الخاصة ومزاجه «المختلف»، ويكتسب الزوج مع الزمن ومع «حرارة» الصراع الإدراك

الصحيح بأن احتفاظه بذاتيته لا يتعارض مع قيامه بمسئولياته وواجباته كزوج وأب ورب أسرة.

أما زوجة سقراط التى أشارت إليها كاتبة الرسالة.. فلقد كان اسمها أنثيبية، وقد لعنها كل المؤرخين ولم تأخذهم بها رحمة، لأنها لم تر بالفعل فى زوجها العظيم إلا رجلاً دميمًا متسخ الملبس يجلس طوال النهار على الأرض بين تلاميذه أو يتجول فى الأسواق يتساءل عن معنى الخير والشر والفضيلة.. ويحاور الأدعياء لكى يثبت لهم جهلهم. مؤكدًا للجميع أنه أول الجهلاء! فكانت زوجته تسخر منه أمام تلاميذه وتلعنه وتعيّره بفقره وتلقى عليه بماء الغسيل القذر، فلا يغضب سقراط، ولا يفقد صبره وقدرته على ضبط النفس، وإنما يقول لتلاميذه متهكما:

- امرأتى كالسماء.. تُرعد.. وتُبرق.. ثم تمطر! والسؤال المهم هو لماذا يحلو لبعض الأزواج أن يتصور كل منهم نفسه سقراط ويتهم زوجته بأنها «أنثيبية» التى لا تقدّر عظمته وعبقريته.. وموهبته.. وطبيعته «المختلفة» عن غيره من البشر؟ والحقيقة هى أن كثيرين من البشر يحلو لهم أن يعتبروا أنفسهم أشخاصًا غير عاديين حتى ولو كانوا بالفعل من البشر العاديين الذين لا مواهب لهم ولا عبقرية، ويطيب للكثيرين دائمًا بل ويرضى غرورهم أن يشعروا بأنهم «مختلفون» عن الأشخاص الآخرين وأن ما ينطبق على هؤلاء الآخرين من قوانين الحياة لا ينبغى له أن ينطبق عليهم لأنهم «فنانون» حتى ولو لم يمارسوا فنا.. ولأنهم «متفردون» وعلى الآخرين أن يتعاملوا معهم على هذا الأساس وأن يقبلوا بتمردهم وجموحهم فى بعض الأحيان!

ومشكلة هؤلاء هى أن زوجاتهم لا يقتنعن عادة بأنهم أشخاص «مختلفون» ولا بتفردهم ولا بعبقرياتهم ولا أيضًا بحقوق هذه العبقرية عليهن فى التجاوز عن بعض هناتهم وجموحهم وتحررهم من القيود، فيحاصرنهم بالواجبات العائلية وينكرن عليهم هذا الميل غير المبرر لديهم للتحرر من القيود والواجبات، ويشتد الصراع بين الطرفين فتبدو هؤلاء الزوجات فى نظرهم كزوجة سقراط التى ترعد وتبرق ثم تمطر!

وإلى أن يتوصل الطرفان إلى حل وسط يضمن السلام العائلى ويحقق للزوج إرضاء رغبته فى الإحساس بأنه «فنان» حتى ولو لم يمارس فى حياته أى إبداع فنى، ويحقق للزوجة فى نفس الوقت ما تطلبه من اهتمام زوجها بها، وبأبنائه وبيته بغير أن يتعارض ذلك مع ما يحب أن يراه فى نفسه من ذاتية «مختلفة» ومزاج فنى مغاير، فلسوف يظل الجدال مستمراً بين كل من يحلو له أن يعتبر نفسه فنانا وبين من يتهمها بأنها كزوجه سقراط.. لا تقدر عبقريته حق قدرها!

والحقيقة هى أنه لا الزوج سقراط فى موهبته وقدراته العقلية وجموح طبيعته التى تبرر له الخروج على المألوف فى بعض الأحيان.. ولا الزوجة أنثيبية التى لم تقدر عبقرية زوجها ولم تسلم له بحقوق هذه العبقرية، لكنه ميل الإنسان الغريزى أحيانًا للإحساس بتفردّه واختلافه عن الآخرين، وضيق المرأة بكل زوج لا يشعرها بأنها اهتمامه الأول فى الحياة ومن بعدها تأتى كل الواجبات والمسئوليات والأعباء.. وهى «حكاية» أخرى لا مجال للحديث عنها الآن طلبًا للسلام العائلى.. وشكراً.

القصاصات الحائرة!

أعانى من مشكلة صغيرة أحتاج إلى مشورتك فيها؟

فأنا من هؤلاء الأشخاص الذين « يعز » عليهم التخلص من أية قصاصة ورق سطروا عليها بضعة سطور، أو تحمل إليهم رسالة من صديق أو غريب.. أو تتضمن أية بيانات من أى نوع.. فإذا كنت قد عرفتنى منذ ثلاثين سنة مثلاً وأرسلت إلىّ رسالة قصيرة فى مناسبة لم تعد تذكرها الآن، فتأكد من أن رسالتك مازالت فى « الحفظ والصون » عندى حتى الآن، وإذا كنت قد مررت بمكتبى ذات مساء من عشرين سنة وتركت لى بطاقة تحية تحمل اسمك وعنوانك ورقم تليفونك، فاعرف أن هذه البطاقة مازالت فى موضعها الآمن « بمجلدات » الكروت والباطاقات المماثلة، ومن بينها كروت وبطاقات لأشخاص التقيت بهم فى مصر وفى دول العالم المختلفة التى زرتها خلال رحلة العمر.

فإذا كان هذا شأنى قبل أن أتصدّى للرد على رسائل المهمومين فى بريد الجمعة فى الأهرام منذ ١٥ عامًا، فكيف تتخيل حالى الآن وأنا أتلقى حوالى ٢٥٠ رسالة كل يوم منذ سنوات وكيف تتصور معاناتى مع تلال الرسائل والخطابات التى لابد لى من التخلص من معظمها لكى أفسح مكانًا لغيرها فوق مكتبى بالأهرام وفى أدراجه، ناهيك عن كل

«أوعية» حفظ الورق المعروفة وغير المعروفة فى مكتبى بالبيت من أدراج وكراتين ومظاريف بل و« أجولة » أيضًا!

لقد أجبرتنى الظروف على أن اتخلص مما لا مفر من التخلص منه من هذه الرسائل والأوراق، فاكتسبت بعض القدرة على ذلك، وأصبحت ألقى الآن فى سلات المهملات بما لاحاجة لى منه، وأنا أغالب نفسى ورغبتى فى استعادتها مرة أخرى، لكن المشكلة ليست فيما أتخلص منه كل أسبوع من رسائل وإنما المشكلة الحقيقية هى فيما أحتفظ به منها لأختاره للنشر.. أو للرد على كاتبه برسالة شخصية حين أتمكن من ذلك، فهذه « المختارات » نفسها قد أصبحت تشغل حيزًا كبيرًا جدًا من البيت وبسببها ثارت « خلافات فكرية » لا داعى للإشارة إليها اضطرتنى إلى حشر بعضها فى كراتين وتخزينها فى مكان آخر خارج مسكنى. وكلما نصحنى أهل « الحكمة » بالتخلص من معظمها لإفساح المجال لاستقبال « الجديد » الذى ينهمر علىّ كالسيل كل يوم، قفزت إلى خاطرى عبارة الإمام أبى حامد الغزالى: ليس المُشكل فى النصيحة ولكن فى العمل بها!

وأجبت ناصحى بأنه لا تغيب عنى « خطورة » الحال إذا استمر تراكم الورق من حولى هنا وهناك بلا نهاية دون تصريف لهذا المخزون، ولست أجادل فى ضرورة التخلص من كميات كبيرة منه، لكن المشكلة هى أننى لا أستطيع ذلك!

وكلما راودتنى نفسى أن أستجيب لنصائح العقلاء.. ردّنى ضعفى أمام الورق عن الأخذ بالنصيحة، والنتيجة هى استمرار النمو السرطانى لأعداد الملفات التى تضم الرسائل والأوراق التى أريد الاحتفاظ بها، واستمرار تزايد قطع الأثاث الصغيرة التى تحوى عددًا لا بأس به من

الأدراج فى بيتى، حتى لتصبح أهم ميزة لقطعة الأثاث الصغيرة التى أشتريها فى نظرى هى عدد أدراجها وليس شكلها أو تناسبها مع باقى الأثاث، فتزداد هذه القيمة عندى بازدياد عدد الأدراج وتتناقص بتناقصها.

فإذا كنتُ مصابًا بآفة العجز عن التخلص من الأوراق والرسائل الشخصية ورسائل القراء.. فليست المسألة كلها سلبيات كما يزعم « أعداء الورق » من أسرتى، إذ ما أكثر ما استفدت من هذه الأوراق القديمة والجديدة فى عملى وفى إنتاجى الأدبى، وما أكثر ما رجعت إليها من حين لآخر إما لاختيار رسالة منها للنشر، أو لاستلهام فكرة مقال أو قصة قصيرة أو لتذكر بعض خلفيات ما تطرحه من مشاكل إذا أرسل إلى من كتبوها رسالة أخرى بعد بضع سنوات، أفلا تكفى كل هذه « الفوائد » لتبرير ضعفى أمامها وعجزى عن التخلص منها؟

وإذا لم يكن ذلك كافيًا.. ألا يكفى هذا المثال الذى أعرضه عليك الآن للاقتناع بأهمية « الورق » وفوائد الاحتفاظ به؟

لقد اعتدت وأنا أقرأ رسائل المهمومين التى اخترتها للنشر فى بريد الجمعة أن أضع أمامى بعض قصاصات الورق الصغيرة لأسجل عليها ما يلمع فى ذهنى من خواطر أو تعليقات خلال قراءتى للرسالة من وحى ما تعرضه من مشكلة وخوفًا من أن أنسى هذه الخواطر إن لم أبادر بتسجيلها.. فإذا انتهيت من قراءة الرسالة وإعدادها للنشر وتهيأت لكتابة ردى عليها.. وجدت بين يدى مجموعة من القصاصات الصغيرة التى سجلت عليها رأيى المبدئى فى المشكلة وخواطرى بشأنها، فأبدأ كتابة الرد معتمدا على هذه القصاصات التى حفظت لى ما فكرت فيه وأنا أقرأ

الرسالة، ولو لم أفعل ذلك لربما كان ردى قد افتقد بعض تركيزه أو بعض إحاطته بجوانب المشكلة المختلفة.

فهل يحقُّ « لعاقل » بعد ذلك أن « يلومنى » على أننى لا أفرط فى هذه القصاصات الثمينة بعد الانتهاء من كتابة بريد الجمعة، أو لأننى أحتفظ بأعداد كبيرة منها فى أدراج مكتبى؛ حتى ولو مضت بضع سنوات على استخدامى لها؟

صحيح أنه لم يعد هناك مكان خال لقصاصة جديدة فى مكتبى.. لكن كيف أستطيع إعدام هذه القصاصات « المخلصة » التى أعانتنى على كتابة ردودى على رسائل بريد الجمعة؟

اقرأ معى ما كتبته فى بعض هذه القصاصات وكن حكمًا عادلاً بينى وبين من يطالبنى بالتخلص منها.

* * *

تجربة الانفصال وانهيار الحياة الزوجية تحفر فى شخصية الرجل آثارها الغائرة وتغير الكثير من أفكاره ونظرته للحياة، تمامًا كما تفعل فى شخصية المرأة.. وربما أكثر فى بعض الأحيان!

* * *

زوجات الآخرين دائمًا « جواهر نفيسة » لم يقدرها أزواجهن حق قدرها. وأزواج الآخريات دائمًا أشخاص شاعريون يفيضون عطفًا ورقة على الدنيا من حولهم لكن زوجاتهم لم يفهمنهم فهمًا صحيحًا للأسف! هذه هى خلاصة خبرتى مع شكوى الزوجات اللاتى يطوف بخاطرهن طائف الرغبة فى تغيير حياتهن والارتباط برجال آخرين عدا أزواجهن،

ومع شكوى الأزواج الذين وجدوا دائمًا « الفهم الصحيح » لهم لدى الأخريات وليس لدى زوجاتهم!

* * *

مع مشاعر الغيرة لا يفرّق الإنسان بين غريب وقريب وإنما يغار ويستسلم لمشاعر الغيرة وشكوكها كلما تملكه الخوف من أن يفقد من يحب بغض النظر عن أشخاص من يغار منهم أو قرابتهم له أو مكانتهم السابقة لديه، فإذا كان الغضب الأهوج يعمى البصر والبصيرة فإن الغيرة وحش أكثر ضراوة وأكثر تغييبا للعقل منه.

* * *

مالُ الدنيا كله لا يغنى الأبناء شيئا إذا فسدت قيمُهم، وإنه لأفضل لهم أن ينشأوا على القيم الصحيحة فى أسرة سوية محدودة الموارد، عن أن يرثوا مال قارون وقد اختلّت قيمهم وموازينهم ودفعوا ثمنًا باهظًا لتمزق أواصر الأسرة!

* * *

إحساس الرجل برفض شريكة حياته له وعدم اقتناعها به رغم سنوات العشرة، إحساس مرير وقاتل للروح والشخصية يهز ثقته فى نفسه ويزلزل شعوره بالجدارة ويطلق من أعماقه أسوأ النوازع والسلوكيات.

وإحساس المرأة برفض شريك حياتها لها.. أكثر سوءا من ذلك وأكثر خطرًا!

* * *

الإنسان معذب دائمًا برغباته وأمنياته، ولا حدَّ لمطالبه من الحياة،

وكلما تحققت له أمنية تطلع إلى غيرها كأنما يقول للحياة دائمًا: هل من مزيد؟ كمن يشرب من ماء البحر فيزداد عطشًا.. وقليلون هم من يستكثرون على أنفسهم ما سخت عليهم به الحياة ويشكرون ربهم عليه!

* * *

نحن نعوض فى أبنائنا ما حرمنا نحن منه فى حياتنا ونطبق معهم كل ما تعلمناه وعانيناه من دروس الحياة ولهذا فليس يكفى لرعاية أطفالنا أن نحبهم فقط وإنما لابد أيضًا أن نضع هذا الحب موضع التنفيذ وأن نترجمه إلى أفعال وتصرفات وتضحيات من أجلهم.

فإذا قالت أم أو أب لطفله: إنى أحبك، كان من حق هذا الطفل أن يسأل أمه أو أباه: « أرنى »كيف أحببتنى ولا تكتف بإسماعى كلمة الحب والعطف وحدها!

* * *

الإيمان بالله والأمل الأبدى فى رحمته.. هما أعظم أسلحة الإنسان فى صراعه مع شتى أنواع الوحوش الضارية التى تحاول اغتيال حياته وسعادته وأمانه.

أما اليأس والقنوط والاستسلام للإحساس بالعجز ورفع الراية البيضاء أمام ما يتهدد الإنسان من أخطار فليس سوى أسرع طريق إلى فناء الإنسان وشقائه.

* * *

الخطأ لا يبرر الخطأ أبدًا، فإذا كان الزوج عابثًا فإن الاحتجاج على استهتاره وخيانته لا يكون بأن تنحدر الزوجة إلى نفس الهاوية التى سقط فيها وأنكرتها عليه من قبل، ولا يفيد فى ذلك أن تبرر لنفسها ما فعلت

بأنه قد سبقها إليه، فالزوجة تحفظ عرضها لنفسها ودينها وكرامتها وأبنائها قبل أن تحفظه لزوجها، وهى تلتزم بأخلاقياتها التى ترى نفسها جديرة بها ليس خوفًا من الزوج ولا إرضاء له، وطرق الاحتجاج كثيرة لكنه أبدًا ليس من بينها هذه الطريقة الشائنة!

* * *

ضمير الإنسان هو حارس الفضيلة والقيم، والضمير الحى قد تصيبه أحيانًا غاشيةٌ فيغفو قليلاً أو يتغافل لكنه لا يموت أبدًا ولا بد له أن يستعيد عافيته بعد قليل ويحاسب صاحبه على ما فعل خلال غشيته ويرده إلى الصواب والعدل مرة أخرى!

* * *

صاحب المروءة والدين إذا أحب زوجته أعزّها وأكرمها وإذا كرهها لم يظلمها ولم يؤذ مشاعرها بما تكره، ولقد أباح له دينه أن يكذب عليها إذا سألته عن حقيقه مشاعره تجاهها، فيزعم لها حبه وإن لم يستشعره حرصًا على مشاعرها وإرضاء لنفسها.. فمن منا يرغب فى أن يكون صاحب مروءة وصاحب دين؟

* * *

لماذا نخجل من الفشل وهو ملازم دائمًا للنجاح ولماذا نعتبره نهاية الحياة وهو الوجه الآخر لبهجة التفوق والامتياز ولا بد أن يتنقل الإنسان بينهما فى مراحل مختلفة من العمر..، إن الاعتراف بالفشل لا يعيبنا فى شىء، بشرط أن يدفعنا الإقرار به إلى طلب النجاح والسعادة ولن ينجح الإنسان فى حياته إلا إذا تقبل فشله بغير مرارة وعالج أسبابه ووضع قدميه على الطريق الآخر.

* * *

من الإنصاف أن نضع سعادة الآخرين فى اعتبارنا ونحن نطلب سعادتنا وألا ننسى حقوق الآخرين علينا ونحن نطلب حقوقنا.

* * *

الإنسان مطالب دائمًا بأن يتحمل أقداره بشجاعة وبأن يقول لنفسه ما قاله الموسيقار العظيم بيتهوفن:

« لأغالبن الظروف القاسية دون أن أحنى لها هامتى! »

فإن لم ينجح فى تحدى هذه الظروف وتغييرها إلى الأفضل فلا يفقدن على الأقل إحساسه بالكرامة الإنسانية، ولا ثقته فى جدارته بما هو أفضل مما سمحت به الظروف!

* * *

هذه عينة صغيرة من قصاصات الورق التى تملأ أدراج مكتبى فهل تنضم إلىّ فى الدفاع عنها.. أم ستنضم إلى « أعداء الورق » وتطالبنى معهم بالتخلص منها؟

فوق المناقشة!

تضحكنى هذه القصه كثيراً وأستمتع باسترجاع تفاصيلها من حين لآخر.

إنها تحكى عن شابين صغيرين أحدهما من أسرة « ڤينى » كانا يسافران بالسيارة إلى الجنوب الأمريكى، فتوقفا فى الطريق أمام سوبر ماركت كبير ودخل الاثنان ليشتريا الطعام وزجاجات المياه لمواصلة الرحلة وعادا إلى سيارتهما الخضراء المكشوفة لمواصلة السفر، فلم تمض نصف ساعة حتى وجدا إحدى سيارات الشرطة تلاحقهما على الطريق وتطلب منهما الوقوف، وارتعب أحد الشابين وأسقط فى يده.. فقد تخيل أن صاحب السوبر ماركت قد أبلغ الشرطة عنهما لأنه قد أخفى بالفعل فى ملابسه عند الخروج من المحل علبه تونة لم يدفع ثمنها، لكن ضابط الشرطة اقترب من الشابين وفاجأهما بشهر سلاحه فى وجهيهما ثم أعادهما إلى البلدة التى غادراها منذ قليل!

وفى قسم الشرطة فوجىء الشابان الصغيران بأنهما ليسا متهمين بسرقة إحدى المعلبات الرخيصة وإنما بقتل صاحب السوبر ماركت وسرقة خزانته، وأن ثلاثة من جيران الرجل قد شاهدوهما يغادران المحل ويهرولان إلى سيارتهما الخضراء المكشوفة بعد ارتكاب الجريمة!

وذهل الشابان للاتهام الظالم واتصل الشاب ڤينى بأمه وروى لها ما حدث فأبلغته بأنها سوف ترسل إليه ابن عمه المحامى حديث التخرج ليدافع عنهما ويقف إلى جوارهما.

وفى اليوم التالى جاء ابن العم « ڤينى » مع فتاته التى خطبها منذ سبع سنوات وترفض إتمام الزواج قبل أن يكسب أول قضية له، ولا تكف عن الجدال معه طوال الوقت ولا يطيق أحدهما رغم ذلك البعد عن الآخر!

والتقى المحامى الجديد بالقاضى فى مكتبه وبدأ القاضى يحاوره ليعرف هل تؤهله خبرته السابقة للدفاع عن هذين الشابين فى هذه القضية الخطيرة أم إنه من الأفضل أن ينتدب لهما محاميًا آخر أكثر خبرة فاضطر المحامى الجديد إلى الادعاء بأن له خبرة قضائية سابقة بالقضايا المماثلة على خلاف الحقيقة وهى أنه لم يقف فى ساحة محكمة من قبل ولم ينجح فى الفوز بشهادته القانونية إلا بعد أن رسب فى الامتحان خمس مرات متوالية!

واقتنع القاضى بكفاءته وإن ظل متشككًا بعض الشيء فى غرابة مظهره!

ثم عقدت جلسة الاستماع الأولى التى يعرض فيها المدعى اتهامه ويرد عليه المحامى بدفاع مبدئى فيقرر القاضى رفض القضية أو إحالتها للمحاكمة.

ومن اللحظة الأولى فى جلسة الاستماع ظهر جهل المحامى الجديد بالإجراءات القضائية البسيطة ولفت الأنظار بمظهره الغريب وبالجاكت الجلدى والقميص الأسود اللذين يرتديهما وانتهت الجلسة بإحالة القضية للمحاكمة وحبس المحامى ٢٤ ساعة لإهانته للمحكمة!

وأسرعت الخطيبة إلى دفع قيمة الكفالة وإخراج فتاها من السجن.

وفى الجلسه التالية التزم المحامى بما طلب منه القاضى فارتدى ربطة عنق، لكن القاضى لم يرض عن الجاكيت الجلدى وقميصه الأسود وانتهت الجلسة أيضا بقرار من القاضى ببدء الاستماع إلى شهادة الشهود وحبس المحامى ٢٤ ساعة أخرى لإهانته للمحكمة!

ودفعت الخطيبة من جديد قيمة الكفالة وخرج المحامى من الحبس، لكن أحد الشابين كان قد فقد الثقة نهائيًا فى قدرات محاميه وحدث صديقه بذلك وأنذره بأن نقص خبرة ابن عمه المحامى قد تؤدى بهما فى النهاية إلى حبل المشنقة، ولهذا فإنه سوف يلجأ إلى المدعى العام طالبًا انتداب محام مؤهل للدفاع عنه، ورغم اقتناع صديقه بذلك إلا أنه أحس حرجًا شديدًا فى أن يتخلى عن محاميه لأنه ابن عمه ولأنه من أسرة «ڤينى» التى تتسم بالذكاء الفطرى والقدرة اللامتناهية على الجدال!

وتنتدب المحكمة بالفعل محاميًا آخر للشاب ويواصل صديقه المشوار مع ابن عمه حرصًا على الروابط العائلية بالرغم من عدم ثقته بقدراته.

وتعقد المحكمة جلسة أخرى وتبدأ فى سماع الشهود ويناقش ممثل الاتهام أحد الشهود الذين شاهدوا الشابين يدخلان المحل ويغادرانه، وينتهى من مناقشته فيبدأ المحامى المنتدب فى مناقشته وينهض فى ثقة وخيلاء ويتجه إلى الشاهد.، والشاب المتهم ينظر إلى صديقه ويقول له:

هذا هو المحامى حقًا.. وليس ذلك المهرج ابن عمك!

ثم يقف المحامى المنتدب أمام منصة الشهود ويبدأ فى المناقشة فإذا به يتلجلج ويعرق ويواجه صعوبة شديدة فى النطق وإخراج الكلمات وحين يتغلب عليها فى النهاية ويستجمع شجاعته على الكلام يناقش الشاهد مناقشة ساذجة تنتهى بإفحام الشاهد له وعودته إلى مقعده خائبًا وهو يتصبب عرقًا، ويتعجب من ذلك العىْ اللاإرادى الذى ينتابه كلما ترافع أو ناقش أحد الشهود! ويضع الشاب المتهم رأسه بين يديه يائسًا من النجاة!

وأخيرًا يجىء دور المحامى الجديد الذى لا يعرف الإجراءات القضائية ويرتدى ربطة العنق لأول مرة فى حياته ويثير ضحك الحاضرين بتصرفاته التلقائية الغريبة.

ويراقبه المدعى ساخرًا وهو يقترب من منصة الشهود منتظرًا أن يتحفه كعادته ببعض التصرفات الغريبة التى تثير ضحكه المكتوم، فإذا بهذا المحامى الذى لا يجيد شيئًا سوى الجدال مع خطيبته حول كل التوافه، يسأل الشاهد سؤالاً بسيطًا عن زاوية الرؤية التى رأى منها هذين الشابين حين دخلا إلى المحل وحين خرجا منه! فيجيبه الشاهد أنه حين رآهما يدخلان إلى المحل كانا قادمين فى اتجاهه بحيث يستطيع أن يرى وجهيهما أما حين غادراه فقد كانا يبتعدان عنه إلى الاتجاه الآخر بحيث لا يرى منهما سوى ظهريهما!

فتبتسم خطيبة المحامى الجالسه فى مقاعد الجمهور.. وتشير لابن عم خطيبها بيدها كأنما تقول له: أنظر ذكاء خطيبى؟

ثم يسأل المحامى الجديد الشاهد عما كان يفعل حين رأى الشابين فيجيبه بأنه بعد أن رآهما يدخلان المحل اتجه إلى مطبخه لإعداد طعام إفطاره، وحين رآهما يغادرانه كان يضع طعام الإفطار على المائدة استعدادًا لتناوله!

ويسأله المحامى عن نوع طعام الإفطار الذى أعده لنفسه والفترة التى استغرقها إعداده فيجيبه على ما سأل ويقول له إنه استغرق فى إعداده خمس دقائق فقط!

لكن المحامى كان بالصدفة قد تناول نفس هذا الإفطار فى المطعم ذلك الصباح وسأل الطاهى عن كيفية إعداده وأجابه بأنه يستغرق من ١٥ إلى ٢٠ دقيقة على الأقل لطهيه.

فجادل الشاهد فى الفترة التى استغرقها إعداد طعام الإفطار جدالاً شديدًا، وشكك الحاضرين فى دقة الوقت الذى استغرقه الشاهد لإعداد طعام إفطاره.. ثم سأله أخيرًا: أليس من الممكن أن تكون قد رأيت هذين الشابين يدخلان إلى المحل، ثم انصرفت إلى إعداد إفطارك الذى يستغرق إعداده عشرين دقيقة كان خلالها هذان الشابان قد انصرفا إلى حال سبيلهما بعد شراء طعامهما ورجعت فرأيت شابين آخرين ينصرفان من المحل بعد قتل صاحبه وسرقته؟

ويتردد الشاهد فى الإجابة، لكن المحامى يضغط عليه بالسؤال: أليس هذا ممكنا من الناحية النظرية البحتة!

فلا يجد الشاهد مفراً من أن يجيب بإمكان ذلك نظريًا ويرجع المحامى إلى مقعده مبتسما وخطيبته تطرقع بأصبعها طربًا وخيلاءً بغير مراعاة لوقار المحكمة!

وتنتهى الجلسة وقد تغيرت نظرتا القاضى والمدعى إلى هذا المحامى الجديد بعض الشيء أما صديق ابن عمه الذى طلب انتداب محام له فقد وقف يطلب من القاضى إعفاء محاميه وتكليف محامى صديقه بالدفاع

عنه وتوالت الجلسات بعد ذلك لتكشف بالفعل عن موهبة ابن العم ڤينى فى الجدال وعن ذكائه فى المناقشة وقدراته العقلية فى الاستنتاج وتحليل الأحداث.

وهدم المحامى الجديد الذى ينال فرصته لأول مرة شهادة السيدة العجوز التى رأت شابين يخرجان مهرولين من محل القتيل وقالت إنهما هذان الشابان، فقد لاحظ ضعف بصرها، وراح يستدرجها فى الحديث عن نظارتها الطبية السميكة التى غيرتها عشر مرات خلال رحلة العمر ثم رجع إلى نهاية قاعة المحاكمة ورفع أصبعين فى الهواء وطلب منها أن تذكر عدد الأصابع المرفوعة فإذا بها تجيب بأنها أربعة!

وهدم كذلك شهادة الشاهد الثالث الذى شاهد الشابين من نافذة بيته الذى يبعد عن المحل حوالى ٥٠ مترا، فقد قدّم لهذا الشاهد نفسه صوراً التقطتها خطيبته هاوية التصوير لنافذة بيته المغطاة بالتراب، وللأشجار الكثيفة التى تفصل بين بيته وبين المحل ومن الممكن أن تحجب عنه الرؤية الدقيقة إلخ.

أما شهادة هذا الخبير فى صناعة السيارات الذى شهد بأن آثار إطارات السيارة التى وجدت أمام المحل هى نفسها آثار إطارات سيارة هذين الشابين فلقد فنّدها مبدئيا حين أجبر الشاهد على الاعتراف بأن إطارات سيارة الشابين من طراز شائع وواسع الانتشار بحيث يمكن أن يكون لأية سيارة أخرى.

أما الجانب الفنى الأكثر تعقيداً من شهادته فلقد احتاج فى تفنيده إلى مساعدة خطيبته التى تهوى السيارات وتعرف من المعلومات العامة عنها ما لا يعرفه بعض المتخصصين!

صحيح أنها غاضبة منه فى هذه اللحظة على أثر جدال مألوف بينهما،

لكن حياة الشابين فى خطر ولا مجال للتوقف الآن أمام خصام المحبين العابر، فدعاها إلى منصة الشهود وبدأ يوجه أسئلته إليها فإذا بها تشيح بوجهها عنه لأنها على خصام معه! ويضطر المحامى للاستنجاد بالقاضى لإجبارها على الشهادة، ويسألها القاضى لماذا لا تجيب على أسئلة المحامى فتجيبه: لأنها تكرهه!!، ويلاحظ القاضى روح العداء الملموسة فى حديثها للمحامى فيسأله: هل تعرفان بعضكما البعض؟

ويجيب المحامى بأنهاخطيبته، فيعلق القاضى مبتسمًا بأن ذلك كاف لتفسير هذه الروح العدائية!

ثم تجيب الشاهدة على الأسئلة فتكشف عن معرفة واسعة بالسيارات وأنواعها وميكانيكيتها وتنتهى من شهادتها إلى نفى أن تكون آثار إطارات السيارة موضوع القضية هى آثار سيارة المتهمين لاستحالة ذلك فنيًا، ويطرب المحامى لشهادة خطيبته ويشكرها عليها وهو يقبّل يدها امتنانا أمام الجميع وتستجيب لإطرائه وقد استردت ابتسامتها الساحرة ونسيت خصامها، ويندهش المدعى لشهادة الشاهدة الهاوية ويلتفت إلى خبير السيارات ليستنجد به فيشير إليه بأن كل ما تقوله صحيح.

ولا يدع المحامى الفرصة تضيع عبثًا فيدعو خبير السيارات إلى منصة الشهود ليسأله عن صحة ما قالته خطيبته الفاتنة فإذا به يعترف بصحته من الناحية الفنية.

ثم يرجع مأمور الشرطة الذى كان المحامى قد رجاه قبل قليل أن يستعلم له فى أقسام الشرطة المجاورة عن سيارة أخرى مشابهة لسيارة المتهمين ومخالفة لها فى الطراز يمكن أن تكون قد ضبطت أخيرا وبها شابان مقاربان فى الحجم للمتهمين، ويستدعيه المحامى إلى منصة الشهود فيفجر القنبلة ويعلن أن قسم الشرطة المجاور قد ضبط سيارة

مسروقة مماثلة لسيارة المتهمين يركبها شابان مشبوهان وفى حوزتهما مسدس من نفس الطراز المستخدم فى جريمة قتل صاحب المحل.

ويتوجه القاضى ببصره إلى المدعى سائلاً عما إذا كان لديه ما يقوله، فينهض المدعى مسلّما بالهزيمة ويطلب إسقاط الاتهام عن الشابين البريئين، وتنفجر القاعة بالتصفيق والتهليل، وتقفز الخطيبة التى كانت منذ قليل على خصام مع خطيبها إلى أحضان فتاها تقبله وتهنئه وتفخر به! وينقضّ الشابان البريئان على المحامى الذى تشككا فى قدراته معانقين وشاكرين.

وينشغل المحامى خلال ذلك كله بالهرولة خارجًا من المحكمة والمدينة كلها قبل أن يكتشف القاضى أنه لم تسبق له المرافعة من قبل فى أية قاعة محكمة مما قد يعرضه للمساءلة بتهمة خداع القاضى!

ويركب سيارته وسط كلمات التهانى والثناء من القاضى والمدعى ومأمور الشرطة، وتنطلق سيارة المخطوبين فى طريق العودة إلى مدينتهما وهما يتجادلان كالعادة هل كسب الخطيب قضيته بكفاءته وحده.. أم بمساعدة خطيبته له؟ وهل يعتبر كسبه للقضية على هذا النحو كافيا لإتمام الزواج وفقا لشروط خطيبته أم إن الأفضل هو أن تنتظر حتى ينجح فى كسب قضيته الأولى بدون مساعدتها؟ وهل إذا تم الزواج يكون فى حفل صغير أم كبير، وأيهما أكثر رومانسية فى ذلك؟ وهل العفْوية نوع من الرومانسية أم إنها ليست دائمًا كذلك ويختلف الخطيبان كالعادة ويتجادلان ويتبادلان الخصام والوفاق فى الساعة الواحدة عدة مرات، لكن الحب عميق رغم كل ذلك وحاجة كل منهما للآخر أصيلة ومؤكدة.. وارتباطهما معًا فوق المناقشة!

وتنتهى هذه القصة الجميلة التى شاهدتها لأول مرة على الشاشة

الفضية فى أمريكا منذ ثلاث سنوات، ومازلت أسترجع أحداثها الممتعة كلما احتجت إلى ما يروح عنى.

أما المغزى الذى أتأمله كثيراً فيها فهو أن لكل إنسان قدراته وطاقاته التى قد يجهلها هو نفسه، ولا يعترف له بها الآخرون لأنه لم يختبرها بالممارسة ولم يجد الفرصة الملائمة للتعبير عنها، فإذا وضعته الظروف أمام اختبار المسئولية وأتاحت له فرصته الكاملة لخوض التجربة، فقد يكشف بالفعل عن قدرات ومواهب جديدة بإعجاب الآخرين وتقديرهم.. ولهذا فليس من الحكمة دائمًا أن نحكم على أحد من مظهره ولا حتى من تعثره المبدئى أمام المواقف الطارئة، لأنه لم يُختبر بعد باختبار المسئولية التى تكشف عن المواهب وتطلق القدرات، وربما لو تعرض له لكشف لنا عما لم نكن نتوقعه منه.

فهكذا فعل ابن العم ڤينى فى هذه القصة الجميلة التى كتبها « ديل لونر » وكتب معالجتها السينمائية « تومى لومباردو » وهكذا قد يفعل أى إنسان إذا صهرته نار المسئولية وأتيحت له الفرصة العادلة لاختبار قدراته.. ومواهبه!

أما هذا النوع العجيب من الحب الذى يجمع بين الحبيبين اللذين لا يكفان عن الجدال ولا عن حب أحدهما للآخر، فأعترف لك أننى قد أحببته كثيرًا وأعجبت به كثيرًا رغم غرابته لأنه حب « ديالتيكى » حَرَكى جَدَلى يتفاعل ويتحاور ويتصارع ويزداد رغم الصراع قوة وعمقًا، وليس حبًا « استاتيكيا » جامداً ساكنًا لا يتحاور ولا يتفاعل، فيفتر مع الأيام وتذروه رياح الاعتياد وركود العاطفة تدريجيًا على مر السنين!

صدر للمؤلف

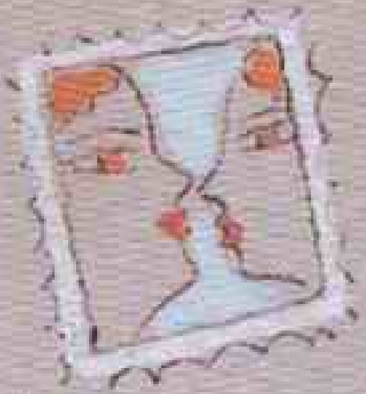
١ ـ أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٨٦ (نفد)
٢ ـ يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى	١٩٨٧ (نفد)
٣ ـ هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٨٨ (نفد)
٤ ـ صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٠ (نفد)
		الطبعة الخامسة	٢٠٠١
٥ ـ نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٠
		الطبعة الثالثة	١٩٩٦
٦ ـ العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩١
		الطبعة الرابعة	١٩٩٨
٧ ـ صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩١
		الطبعة الرابعة	١٩٩٨
٨ ـ العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٢
		الطبعة الخامسة	١٩٩٨
٩ ـ افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٢
		الطبعة الثالثة	١٩٩٨
١٠ ـ اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٢
		الطبعة الخامسة	١٩٩٩
١١ ـ أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الرابعة	١٩٩٩
١٢ ـ أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الثالثة	١٩٩٨
١٣ ـ رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الثالثة	١٩٩٨

١٤ـ وقت السعادة . . ووقت البكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الرابعة	٢٠٠٠
١٥ـ شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الرابعة	١٩٩٩
١٦ـ أماكن فى القلب	قصص إنسانية رومانسية	الطبعة الأولى	١٩٩٤
		الطبعة الثانية	٢٠٠٠
١٧ـ لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الأولى	١٩٩٥
		الطبعة الثالثة	٢٠٠٠
١٨ـ نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٥
		الطبعة الثالثة	٢٠٠١
١٩ـ أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
		الطبعة الرابعة	١٩٩٩
٢٠ـ خاتم فى أصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
		الطبعة الثالثة	١٩٩٩
٢١ـ وحدى مع الآخرين	مقـــالات	الطبعة الأولى	١٩٩٦
		الطبعة الرابعة	٢٠٠٠
٢٢ـ سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٧
		الطبعة الثانية	١٩٩٨
٢٣ ـ هو وهى والآخرين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٧
		الطبعة الثانية	٢٠٠١
٢٤ ـ مكتوب على الجبين	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٧
		الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢٥ـ أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٧
		الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢٦ ـ طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
		الطبعة الثالثة	٢٠٠١

٢٧ ـ اعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
		الطبعة الثانية	٢٠٠١
٢٨ ـ الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الأولى	١٩٩٧
		الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢٩ ـ سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الأولى	١٩٩٧
		الطبعة الثانية	١٩٩٨
٣٠ ـ قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٧
٣١ ـ صور من حياتهم	قصص قصيرة	الطبعة الأولى	١٩٩٨
٣٢ ـ ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٨
		الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٣٣ ـ أهلا مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٨
٣٤ ـ عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٨
		الطبعة الثالثة	٢٠٠٠
٣٥ ـ قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الأولى	١٩٩٩
		الطبعة الثانية	٢٠٠١
٣٦ ـ ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٩
٣٧ ـ الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٩
٣٨ ـ دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٩
٣٩ ـ أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٩
٤٠ ـ أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	٢٠٠٠
٤١ ـ من المفكرة الزرقاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	٢٠٠٠

محتويات الكتاب

صفحة

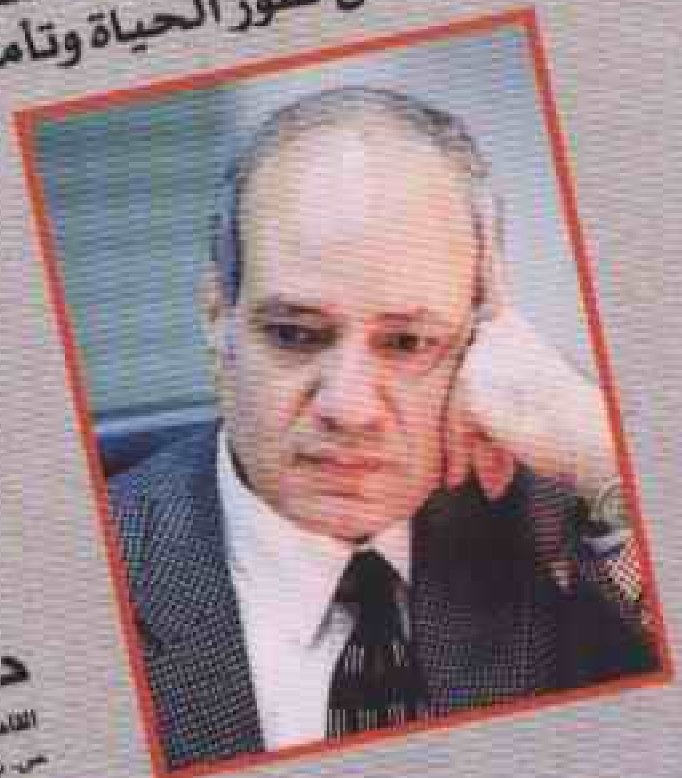


اهلا .. مع السلامة !

هذا هو ملخص « القصة » كلها .. ومغزاها العميق !

اهلا للقادمين .. ووداعا للراحلين .. واهلا بالحب والصداقة وعشرة العمر الجميلة وكل المعانى السامية التى تخفف من عناء الحياة وتزيد من مساحة الصدق والجمال والوفاء فيها، ومع السلامة لكل شىء آن اوان انتهائه .. وحل موعد إسدال الستار عليه . فلكل شىء فى الحياة بداية .. وله ايضا نهاية لا مفر منها وان طال المدى .. من الحب إلى الشباب .. إلى النجاح .. إلى الصحة .. إلى الصداقة إلى كل الأشياء ، وكما نسعد بالبدايات السعيدة علينا ايضا ان نتعلم كيف نتقبل النهايات الحزينة لكل شىء فى الحياة ، ونسلم بها ونتواءم معها.

وفى هذا الكتاب بعض الصور الإنسانية والمقالات الأدبية التى تترجم هذا المعنى ، وتلخص لغز الحياة كلها فى ابسط الكلمات ، اخترتها من بين مشاهداتى فى الحياة ، وقراءاتى فى الأدب الإنسانى فى مختلف العصور ، فعسى ان اكون قد وفقت فى التعبير عما اردت التعبير عنه ، وعسى ان اكون قد وفقت فيما اخترته من صور الحياة وتاملاتها وشجونها الكثيرة .



عبد الوهاب مطاوع

دار الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى – رابعة العدوية – مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما – تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ – فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ – ٨١٧٢١٣ – فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



